

الفصل الثاني والثلاثون

المسرح الأدبي

١٧٥٦ - ٨٩

١ - الصحافة

كان في الخلفية جرائد ، ومجلات ، وناشرون ، ومكتبات متنقاة ، ومسارح ، كلها تتكاثر في اندفاع ، وتنقل صراعات الأحزاب والمواهب إلى جمهور لا يفتأ يتعاضم . وقد ولدت الآن عدة مجلات : « المجلة الأدبية » ، و « مجلة النقد » في ١٧٥٦ ، و « الدفتر العام » في ١٧٦٠ . وبدأت صحيفة جونسن « الرامبلر » (الجوال) في ١٧٥٠ ، وكانت « مجلة الجنتلمان » التي أطعمت جونسن في سنوات كفاحه قد بدأت في ١٧٣١ ، وقدر لها أن تعمر حتى ١٩٢٢ . وضاعفت جرائد لندن عددها ومجموع توزيعها في هذه الفترة . وبدأت « المونيتور (المرشد) » في ١٧٥٥ ، و « النورث بريتن » في ١٧٦١ ، والمورنينج كرونكل في ١٧٦٩ ، والمورنينج هرلد في ١٧٨٠ ، والديلي يونفيرسل رجستر في ١٧٨٥ ، التي أصبحت التيمز في ١٧٨٨ . ووقعت صحيفة « البيلك أدفرتايزر » على منجم ذهب بنشرها رسائل جوننيوس « فارتفع توزيعها من ٤٧,٥٠٠ إلى ٨٤,٠٠٠ . وكانت معظم الصحف اليومية الأخرى تعيش على عدد ضئيل من القراء ؛ من ذلك أن توزيع التيمز في ١٧٩٥ لم يزد على ٤,٨٠٠ ، وكانت أكثر تواضعاً في الحجم منها في الكلام . فهي تصدر عادة في أربع صفحات ، تفرد إحداها للإعلانات . وقد ظن جونسن في ١٧٥٩ أن الإعلان في الصحف قد بلغ حده النهائي .

« لقد زادت الإعلانات الآن زيادة جعلتها تقرأ باهمال شديد ، فأصبح من الضروري لفت النظر بالوعود البراقة ، وبالبلادة التي تكون أحياناً رائعة وأحياناً مثيرة للشفقة . فتاجر سائل التجميل مثلاً يبيع غسولاً يزعم أنه يمنع البثور ، ويزيل الشمس ، ويطري الجلد ، ويربل اللحم . . . وقد بلغت حرفة الإعلان الآن من الكمال ما لا يسهل معه اقتراح أى تحسين عليها ، ولكن بما أن كل فن ينبغي أن يمارس بالخضوع الواجب للمصالح العام ، فلست أملك إلا أن أطرح الأمر على هؤلاء المتحكمين في سماع الشعب بوصفه سؤالاً أخلاقياً ، وهو : ألا يتلاعبون أحياناً بعواطفنا تلاعباً فيه الكثير من العبث والاستهتار؟ (١) .

وظل الطباعون والكتبيون والناشرون مختلطين اختلاطاً كبيراً في حرفة واحدة ، من ذلك أن روبرت ددسلي كان قد نشر أعمال بوب وتشستر فيلد ، فطبع الآن لولبول وجولدسميث . وكان لتوماس ديفيز مكتبة يقبل المشترون عليها ، ويسمح فيها لهم بالتنقيب على مهل ، وقد ألف جونسن وغيره الاختلاف إليها لتصفح الكتب و « البصيصية » لزوجة الرجل الجميلة « وظفر ولهم سترهان بالشهرة بنشره قاموس جونسن ، وكتاب آدم سميث « ثروة الأمم » ، وكتاب جيون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » . وقد نشر الكتابان الأخيران في « سنة العجائب » ١٧٧٦ . وأسست أكسفورد مطبعة كلارندن في ١٧٨٠ . وكان الكتبيون ينقلون المؤلفين أجوراً طيبة عن الكتب الجيدة ، ولكن كان في استطاعتهم استخدام الكتاب المأجورين لإعداد المقالات والمصنفات لقاء أجور حميرة . يقول كتيبي في قصة هنري بروك « الأحمق الوجيه » (١٧٦٦) « في استطاعتى تكايف أحد هؤلاء السادة . . . الذين أنفق على تعليم الواحد منهم من المال أكثر . . . مما يعزل أسرة كريمة إلى آخر الدهر - أستطاع تكايف أحدهم بالكاد كأنه حصان جر من الصباح إلى المساء لقاء أجر أقل مما استأجر به . . . محملاً أو باسح أحذية ثلاث ساعات » (٢) . وتكاثر المؤلفون حتى تشبعت بهم السوق ، واقتتلوا باستماتة في سبيل أجر ضئيل هزيل ، وتهاجوا بأقلام تنمفث السم الزعاف . وأضافت النساء إلى المنافسة : المسز آنا باربولد ، وساره

فيلدينج ، والمسز أميليا أو باى ، والمسز اليزابث انتشبولد ، والمسز اليزابث مونتجيو ، وفانى بيرنى ، وهانا مور . ودخل قسيس رينى فى المباراه وخرج منها بقصب السبق .

٢ - لورنس ستيرن

ولم يكن بالقسيس المطبوع ، فأبوه جندى ، وقد ظل عشر سنين يجر من وظيفة إلى أخرى ، وخلال هذه الفترة وبعدها التقط من العلم بالشئون العسكرية ما يمكنه من أن يجعل « العم طوبى » يتكلم على الحصارات والحصون كلام قائد محنك . أما أمه فقد وصفها بعد ذلك بأنها « ابنة بدال فقير يتبع المعسكر فى فلندر »^(٣) . على أن جده الأعلى كان رئيس أساقفة يورك ، وقد وفقت أسرة ستيرن فى الحصول على منحة دراسية للورنس ألحقته بكمبردج . وهناك نال درجته الجامعية فى ١٧٣٧ ، ولكن نزيهاً رثوياً أصابه فى ١٧٣٦ أنذر بكفاح يخوضه مدى الحياه مع داء السل . ورسم قسيساً انجليكانياً (١٧٣٨) ، وعين فى ابرشية متواضعة فى ساثون - ان - فورست ، قرب يورك . وفى ١٧٤١ تزوج اليزابث لملى ، وأخذها لتعيش معه فى بيته الحرب . وقد عهدت إليه بإيرادها السنوى البالغ أربعين جنيهاً ، فاستثمر بعضه فى أرض ، ونما الإيراد .

وكانا فيما عدا هذا بائسين . فكلاهما مصاب بالسل ، وكلاهما خلق من أعصاب . وسرعان ما خلصت المسز ستيرن إلى أن « أوسع بيت فى انجلترا لا يمكن أن يضمهما معاً لكثرة هياجهما ونزاعهما »^(٤) . وقد وصفتها ابنة عمها المثقفة اليزابث مونتجيو بأنها قنفذ نكد شكس « لا يستطيع المرء أن يتفادى الشجار معها إلا بالابتعاد عنها »^(٥) ثم رزقا طفلين ، مات أحدهما ، أما الطفلة الثانية وهى ليديا فقد تعلقت بأمها تعلقاً واضحاً . وزادت تعاستهما حين جاءت إلى يورك أم ستيرن وأختها ، وكانتا تعيشان فى فقر فى ارلنده ، والتستا منه أن يعينهما بثمانية جنيهات فى العام من دخل زوجته . ولم تثر الفكرة أى حساسة . وأعطى ستيرن أمه بعض المال ورجاها أن تعود إلى ارلنده ، ولكنها ظلت فى يورك ، فلما قبض عليها بتهمة التشرذ رفض ستيرن أن يدفع كفالة للإفراج عنها .

وبعد ثمانية عشر عاماً من الزواج المضنى أحس القسيس أن أى إنسان مسيحي حقاً سيسمح له بشيء من الزنا . وقد وقع فى غرام كاترين فورمانتيل ، وأقسم لها قائلاً « أحبك حب الجنون ، وسأظل أحبك إلى الأبد »^(٦) . وأهمته زوجته بالخيانة ، فأنكر التهمة ، وأشرفت هى على الجنون حتى عهد بها وبأبيديا إلى رعاية « طبيب للمجانين » ، وواصل علاقته الغرامية .

وفى غمرة هذه الضجة كتب واحداً من أشهر الكتب فى الأدب الانجلىزى . وقد رجاه أصدقاءؤه الذين قرعوا طرفاً من مخطوطة الكتاب أن يحذف منه « التوريات النابية التى قد تكون مؤذية بحق ، خصوصاً لصانورها من قسيس » فحذف نحو ١٥٠ صفحة وهو آسف . ثم أرسل الباقى إلى المطبعة غفلاً من اسمه ، ونشر الكتاب فى يناير ١٧٦٠ بهذا العنوان ، « حياة السيد ترسترام شاندى وآراؤه » . وقد بقى فى المجلدين من الفضائح والفكاهة الغربية الطريفة ما جعلها الحدث الأدبى الهام لذلك العام فى لندن . وتردد صدى هذه الضجة فى فرنیه النائبة ، فقال فولتير « كتاب مستهتر جداً ، وكتاب أصيل ، إنهم مجنونون به فى انجلترا »^(٧) . وقال فيه هيوم « أنه خير ما كتب بقلم أى انجلىزى فى هذه السنين الثلاثين رغم ما فيه من سوء »^(٨) . وبيع مائتا نسخة من الكتاب فى بحر يومين فى يورك ، حيث كان اسم المؤلف الحقيقى سرأ مذاعاً وحيث تبين القراء الكثير من الأشخاص المحليين فى شخوص القصة الكبار .

ومن العسير أن نصف الكتاب ، إذ ليس له شكل أو موضوع ، ولا رأس ولا ذيل . وعنوانه خدعة ، لأن « السيد » الذى يروى القصة ، والذى أزمعت أن تعرض « حياته وآراءه » لا يولد إلا فى صفحة ٢٠٩ من المجلد الرابع (من الطبعة الأصلية ذات المجلدات التسعة) . ومادة القصة هى ما حدث ، أو ما قيل ، بينما كان يحبل به ، وبينما كان ينمو على مهل فى بطن أمه . والصفحة الأولى هى خير الصفحات .

« وددت لو أن أبى أو أمى ، أو كليهما حقاً ، إذ أنهما كانا معاً ملازمين بالأمر الواجب على السواء ، أقول وددت لو أنهما فكرا فيما فاعلان حين أنجبانى ، فهل نظرا كما ينبغى أن ينظراكم من الأمور يتوقف على

ما هما صانعان ، وأن المسألة لا تتصل بإنجاب كائن عاقل فحسب ، بل ربما اتخذ التكوين السليم لبدنه ، وهزاج هذا البدن ، ونهوغه وطبيعة ذهن ذاتها ، ربما اتخذت هذه كلها طابعها من الأمزجة والميول الغالية عليهما آنذاك ، - ولو أنهما وزنا هذا كله وفكرا فيه كما ينبغي ، ثم تصرفا طبقاً لهذا ، لكنت يقيناً قد انبعثت إلى العالم شخصاً مختلفاً كل الاختلاف . قالت أبي « من فضلك يا عريزي ، ألم تنس أن تملأ المنبه ؟ » - وصاح أبي . . . « رباه ! أم هناك امرأة منذ خلق الله الدنيا تقاطع رجلاً بسؤال غبي كهذا ؟ » .

ومن ذلك الحادث فصاعداً يتألف الكتاب من الاستطرادات . ذلك أن ستيرن لم يكن لديه حكاية يرويها ، ومن باب أولى حكاية الغرام التي هي مدار أكثر القصص ، إنما كانت رغبته أن يسلي نفسه وقراءه بالحديث الهوائي عن كل شيء ، ولكن دون نظام ؛ فكان يشب حول مشكلات الحياة جلياًها وحقيقتها وثب جواد مرح لعوب في حقل . وبعد أن كتب أربعة وستين فصلاً خطر له أنه لم يكتب لكتابه مقدمة ، فأدخل المقدمة عند تلك النقطة ، وأتاح له هذا أن يسخر من نقاده . ووصف منهجه بأنه « أكثر المناهج تقوى ، لأتني أبدأ بكتابة الجملة الأولى ، ثم أتكل في مجيء الثانية على الإله القدير »^(٩) وعلى التداعي الطليق في الباقي . ومن قبله صنع رابليه ما يشبه هذا ، وترك سرفانتس روزنانتى يقوده من حادث إلى حادث ، وجاب روبرث بيرتن العالم قبل تشريحه للاكتئاب ، أما ستيرن فقد رفع توافه الأمور إلى مقام المنهج ، وحرر جميع الروائيين من الحاجة إلى موضوع أو خطة .

ولقد أبهج طبقات بريطانيا ذات الفراغ أن ترى مقدار الضجة التي يمكن إثارتها حول لاشيء ، وكيف أن في الإمكان تأليف كتاب بالإنجليزية الأنجلوا - سكسونية في عصر جونسن . أما البريطانيون الأشداء فقد رحبوا بالطرافة المرحة التي وجدوها في قسيس يتحدث عن الجنس وانفخ البطن ، والشق الذي في سروال العم طوبى . وفي مارس ١٧٦٠ ذهب ستيرن إلى لندن ليرشف رحيق نجاحه ، وأسعده أن يجد أن المجلدين قد نفذا ، وأخذ

٦٣٠ جنبياً نظيرهما ونظير مجلدين آخرين قادمين . لا بل ان « مواعظ مستريوريك » التي نشرت بعد « تراسترام » بأربعة أشهر حظيت ببيع سريع حين عرف أن يوريك هو ستيرن ، وأقبلت الدعوات على المؤلف من تشستر فيلد ، ورينولدز ، وروكنجهام ، لا بل من الأسقف واربرتن ، الذي فاجأه بخمسين جنبياً انجليزياً ، ربما تفادياً من أن يزين الأسقف صفحة لاذعة المهجاء في مجلدات قادمة . واشترى ستيرن عربة وروجين من الخيل ، وركبها في انتصار مرح عائداً إلى يورك ، حيث وعظ في كنيسة الكبرى ، ثم رقى إلى قسوسية أكثر ثراء في كوكسولد ، على خمسة عشر ميلاً من يورك ، فأخذ زوجته وابنته لتعيشا معه هناك ، وهناك كتب المجلدين الثالث والرابع من « ترسترام » في يسر غير معقول .

وفي ديسمبر من ذلك العام ١٧٦٠ ذهب إلى لندن ليتابع طبع المجلدين . ووصل ترسترام الآن إلى رحلة الولادة بالجفت ، الأمر الذي شوه أنفه ، وعليه انطلق المؤلف في حديث مستفيض عن فلسفة الأنوف بأسلوب أكثر العلماء تفقهاً . فقال أحد الثقات إن أنف الطفل تحدده نعومة الثدي الذي يرضعه أو صلابته : « فالأنف حين يغوص فيه . . . كما يغوص في قطعة زبد كبيرة يرتاح ويتغذى ويسمن وينتعش ويحيا » (١٠) .

وبعد قضاء نصف عام في لندن عاد ستيرن إلى زوجته التي أخبرته أنها كانت أسعد حالاً بدونه . فانطوى على مخطوطته ، وكتب المجلدين الخامس والسادس ، وفي هذين كاد ترسترام ينسى ، وشغل المسرح العم طوبى والجاويش تريم بذكرياتهما عن الحرب وقلاعهما اللعب . وفي نوفمبر ١٧٦١ انطلق القسيس مرة أخرى إلى لندن ، في آخر يوم من العام شهد صدور المجلدين الخامس والسادس . وقد حظيا باستقبال حسن . وراح يغازل المسز اليزابث فيزي ، إحدى النساء المثقفات ، وأقسم ليضحك حين بأخر مزقة من قسوسيته لقاء لمسة من يدها الملائكية ! (١١) ثم أصيب بنزف رئوي ، وهرب إلى جنوبي فرنسا . وتلبث في باريس زمناً كفى لحضوره بعض حفلات العشاء في « مجمع الملحنين » الذي تزعمه دولباخ ، حيث استهوى ديدرو استهواء لم يفارقه . ولما سمع ستيرن أن زوجته مريضة ، وأن ليديا مصابة

بالربو ، دعاهما للحاق به في فرنسا . واستقر ثلاثهما قرب تولوز (يوليو ١٧٦٢) .

وفي مارس ١٧٦٤ ترك زوجته وابنته بموافقتهم وعاد إلى باريس ولندن وكوكسولد . وكتب الجزئين السابع والثامن من « ترسترام » ، وتسلم مقديما أتعابهما ، وأرسل جزءاً من الحصيلة لمسز ستيرن . وصدر الجزءان الجديدان في يوليو ١٧٦٥ ، فلم يظفرا إلا بثناء متضائل ، ذلك أن النغمة الشانديه - الطربية أخذت تضعف . وفي أكتوبر بدأ ستيرن رحلة في إيطاليا وفرنسا استغرقت ثمانية أشهر . وفي عودته للشمال انضم إلى أسرته في برجنديه ، وطلبت الأسرة البقاء في فرنسا ، فدفعت نفقاتها وقفل إلى كوكسولد (يوليو ١٧٦٦) . وكتب الجزء التاسع فيما بين نوبات نزيفه ، وذهب إلى لندن ليشهد مولده (يناير ١٧٦٧) ، واستمتع بالضجة التي أثارها طوافه حول حافة الجنس في وصفه تودد العم طوبى لمسز ودهن . وكتب القراء المروعون إلى الصحف وإلى رئيس أساقفة يورك يطالبون بشلح هذا القسيس الفاجر وطرده ، ولكنه رفض أن يفعل . وجمع ستيرن خلال ذلك اكتتابات بلغت جملتها ١,٥٥٠ جنياً في كتاب موعود سماه « رحلة عاطفية » وأرسل مزيداً من المال لزوجته وتودد إلى اليزابث دراير .

وكانت زوجة موظف في شركة الهند الشرقية آنثد (مارس ١٧٦٧) معين في الهند . تزوجته وهي في الرابعة عشرة ، وهو في الرابعة والثلاثين ، وأرسل إليها ستيرن كتبه ، واعتزم أن يتبعها بيده وقلبه . وظلا فترة يلتقيان كل يوم ، ويتبادلان الرسائل الرقيقة . والرسائل العشر المسماه « رسائل إلى إيليز » تفضح عن الغرام الحزين الأخير يضطرب في جوانح رجل يموت بالسل . « صحيح أنني في الخامسة والتسعين بنية » ، وأنت لا تتجاوزين الخامسة والعشرين ، . . . ولكن ما أفقده صبي سأعوضه فكاهة ومرحاً ، فما أحب سويفت حبيبته ستيليا ، ولا سكارون حبيبته مانتنون ، ولا وولر حبيبته ساكاريسا ، كما سأحبك وأتغنى بك ، يا زوجتي المختارة ! - ذلك أن « زوجتي لا يمكن أن تعيش طويلاً » (١٢) . وبعد عشر دقائق من إرسال هذا الخطاب أصابه نزف شديد ، وظل ينزف الدم حتى الرابعة صباحاً ،

وفي ابريل ١٧٦٧ أبحرت المسز دراير إلى الهند استجابة لدعوة زوجها . وظل ستيرن من ١٣ ابريل إلى ٤ أغسطس يدون « يومية لاليزا » وهي « مذكرات يومية بالمشاعر التعسة التي يحس بها شخص افترق عن سيدة يدوب شوقاً إلى لقاءها » . « إنى أقبلك على أى شروط تعرضينها يا اليزا ! سوف أكون . . . منصفاً جداً ، وعطوفاً جداً نحوك ، ولن أكون بعد اليوم مستأهلاً للتعاسة » (١٣) . وفي يومية ٢١ ابريل : « نزلت اثنتى عشرة أوقية من الدم » . وأخبره طبيب أنه مصاب بالزهري ، فاعترض قائلاً ان هذا « محال . . . ، لأننى لم أبشر الجنس أيا كان اطلاقه - حتى مع زوجتى ، . . . طوال هذه السنين الخمس عشرة » . « وقال الطبيب : لن نتجادل فى الأمر ، ولكن لا بد لك من أخذ علاج بالزئبق » (١٤) . وأيد أطباء آخرون هذا التشخيص ، وأكد له أحدهم أن « لوثاث الدم تظل كاملة عشرين عاماً » . فأذعن مؤكداً عفته .

وما وافى شهر يونيو حتى تمائل للشفاء وعاد إلى كوكسولد . وبينما كان يكتب « الرحلة العاطفية » أصيب بمزيد من نوبات النزف ، وأدرك أنه لن يمهل فى الأجل طويلاً . فذهب إلى لندن ، وشهد صدور كتيبه (فبراير ١٧٦٨) ، واستمتع لآخر مرة بمحبة أصدقائه التي لم تفتر . وكما أن « ترسترام » ذكر القراء برابليه ، فكذلك عكس الكتاب الجديد التأثير المتصاعد لرتشر دسن وروسو . غير أن فضيلة ستيرن كانت أقل مناعة من فضيلة رتشر دسن ، ودموعه أقل حرارة وإخلاصاً من دموع روسو . ولعل هذا الكتاب ، وكتاب مكزى « رجل الوجدان » (١٧٧١) ، هما اللذان أذاعا كلمتى « عاطفة Sentiment » و « عاطفى Sentimental » فى المجتمع الانجليزى . وقال بايرون ان ستيرن « يؤثر البكاء على حمار ميت على التخفيف عن أم حية » (١٥) .

وبينما كان ستيرن يستمتع بانتصاره الأخير فى لندن أصيب بنزلة برد تفاقمت حتى أصبحت التهاباً بليورياً . فكتب إلى سيدة تدعى المسز جيمس رسالة محزنة يطلب إليها أن ترعى ليديا ان توفيت زوجته . ووافته المنية فى ١٨ مارس ١٧٦٨ ، فى فندق بأولد بوند ستريت دون أن يكون إلى جواره صديق ، غير متجاوز الثانية والأربعين . وكان فيه إثارة من المشعوز ، وقد

جعل من نفسه « مهرجاً للناظرين » ، ولكن في استطاعتنا أن نفهم حساسيته للنساء ، والتوتر الذي فرضه زواج تعس على رجل أوتي هذه الأحاسيس المرهفة والصنعة الرقيقة . لقد قاسى كثيراً ، وأعطى كثيراً ، وكتب كتاباً من أغرب الكتب في تاريخ الأدب قاطبة .

٣ - فاني بيرني

وقد نافست امرأة النجاح الذي أحرزه في ميدان القصص منافسة قصيرة الأمد . ولدت في ١٧٥٢ لأب يدعى تشارلز بيرني أصبح فيما بعد مؤرخاً للموسيقى . وقد رببت على الموسيقى أكثر من الأدب ، فكانت لا تعرف القراءة حتى بلغت الثامنة^(١٦) ، وما كان لأحد أن يحلم بأنها ستصبح كاتبة . وماتت أم فرانسيس وهي في التاسعة . ولما كان أغلب الموسيقيين الذين يعزفون في لندن يختلفون إلى بيت أبيها ويحتذبون إليه شطراً كبيراً من صفوة المثقفين ، فإن فاني اكتسبت تعليمها بالاستماع إلى الكلام والموسيقى . واكتمل نضجها ببطء ، وكانت نحجولا يعوزها الجمال ، واستغرقت أربعين سنة لتعثر على زوج ؛ وحين نشرت روايتها الشهيرة (يناير ١٧٧٨) كانت في الخامسة والعشرين ، وبلغ من خشيتها أن تغضب الرواية أباهاً أنها أخفت نسبتها لها . وأحدثت الرواية ضجة ، واسمها « إفلينا ، أو دخول شابة إلى العالم » وأثار اغفال اسم المؤلف فضول الناس ، وأذاعت الشائعات أن كاتبها فتاة في السابعة عشرة . أما جونسن الذي أثنت عليه المقدمة فقد امتدح الرواية وزكاها للدكتور بيرني . وشككت المسز تريل من فرط قصر الرواية . فلما علمت بالسر ذاع في طول لندن وعرضها ، وأصبحت فاني شخصية بارزة في المجتمع ، وقرأ الجميع كتبها ، وكان « أبي العطوف » يصادق المحبة سعيداً جداً بسعادتي^(١٧) .

وسر فيها هذا الوصف - الذي أعانته ذاكرة متلبثة وخيال حي - للصورة التي تراعى بها المجتمع اللندني لفتاة يتيمة في السابعة عشرة رباها قسيس ريفي لا يمت بشبه قريب ولا بعيد للورنس ستيرن . وما من شك في أن فاني هي أيضاً قد إنتشت بتمثيل جارليك ، وشعرت كما كتبت افلينا للوصي

عليها « يا له من أداء طبيعي ! وما أشد حيوية أسلوبه ! وأرشق حركاته !
وما أعجب ما تضطرم به عيناه من نار ومعنى ! . . . وحين رقص ، أواه
لكم حسدت كلارندا ! كادت أتمنى أن أثب إلى خشبة المسرح وأشاركهما
الرقص (١٨) . أما لندن التي سئمت رذائلها فأحسنت أنها تتطهر بتلك الريح
القوية التي تهب عليها من هذه الصفحات الشابة .

وقد ماتت تلك القصة التي حظيت بصيت ذائع يوماً ما ، ولكن اليومية
التي دونتها فاني مازالت جزءاً حياً من الأدب والتاريخ الانجليزين ، لأنها
تتيح لنا نظرة عن كذب لمشاهير القوم من جونسون وجورج الثالث إلى
هيرشل ونابليون . وقد عينت الممكة شارلوت الأنسة بيرني أمينة على ملابسها
(١٧٨٦) ، وكانت فاني تلبس جلاتها وتخلع عنها ملابسها طوال السنوات
الخمس التالية . ولكن الحياة المتكلفة الضيقة التي عاشتها المؤلفة كادت
تخنقها ، وأخيراً أنقدها أصدقائها ، ففي ١٧٩٣ ، بعد أن ذوى شبابها ،
تزوجت مهاجراً فرنسياً مفلساً هو الجنرال داربليه . وقد عالته بمؤلفاتها
ودخلها ، وظلت عشر سنين تعيش معه في فرنسا بعيدة عن الأضواء يعزها
عن المجتمع عنف حروب الثورة وحروب نابليون . وفي ١٨١٤ سمح
لها بأن تعود إلى إنجلترا وتنال بركة أبها لآخر مرة قبل موته في الثامنة والثمانين .
وقد عمرت هي نفسها لهذه السن ، حتى أدركت عالماً مختلفاً كل الاختلاف ،
عالماً لم يدرك أن جين أوستن المذائعة الصيت (التي ماتت ١٨١٧) إنما
استلهمت الروايات المنسية التي ألفتها سيدة منسية ظلت حية ترزق حتى سنة
١٨٤٠ .

٤ - هوراس ولبول

قال « هذه الدنيا ملهاة لمن ينكرون ، ومأساة لمن يشعرون » (١٩) لذلك
تعلم أن يبتسم للحياة ، بل أن يداعب نقرسه . وقد أرخ لجيايه ، ولكنه غسل
يديه منه : كان ابنا لارئيس وزارة ، ولكن السياسة لم تلبه . وكان يعشق
النساء ، من فاني بيرني إلى أرقى الغراندوقات ، ولكنه أتى أن يكون له
زوجة منهن ، ولا خاليلة (على قدر عامنا) . درس الفلسفة ولكن كان رأيه

في الفلاسفة أنهم لعنة القرن ومصدر ازعاجه . كاتبة وحيدة فقط أعجب بها إعجاباً بغير تحفظ لسلووكها المهذب وفنّها الذي لا تكاف فيه - وتلك هي مدام دسفينيه ، وهي وحدها التي حاول محاكاتها ؛ وإذا كانت رسائله لم تظفر بفتنتها ورشاققتها ومرحها ، فإنها غدت أكثر كثيراً من رسائلها تاريخاً يومية حياً للعصر الذي كتبت فيه ؛ ومع أنه سماها حوليات مستثنى المجاذيب^(٢١) ، فإنه كتبها بعناية ، أملاً في أن يمنحه بعضها ركناً في ذاكرة الناس ؛ ولا غرو ، فحتى الفيلسوف الذي راض نفسه على الفناء يشق عليه الرضى بالنسيان .

وكان هوراشيو (وهو اسمه الذي عمده به في ١٧١٧) أصغر أبناء خمسة ولدوا للسر روبرت ولبول ، رئيس الوزارة الشجاع الذي ضحى بسمعته لأنه أثر السلام على الحرب ، ولكنه لم يكفد يؤذيها بإيثاره الزنا على الاكتفاء بزوجة واحدة^(٢١) . ولعل المتقولين نسبوا هوراس حيناً لأب آخر انتقاماً ازوجته الأولى ، وهو كار ، لورد هرفي ، أخو الرجل المخنث جون ، لور هرفي الإكورتى - الذي اتهم السر روبرت بمحاولة اغواء الليدى هرفي^(٢٢) . وفي هذه المسائل من التعقيد مالا يسمح بإصدار الحكم عليها في الحاضر ، وحسبنا أن نقول ان هوراس نشىء دون أن يرميه أقاربه بنسب منحرف ، وقد عامله رئيس الوزراء بما يعامل به الرجل المشغول ولده من عدم المبالاه ، أما أمه فقد « دلته » (كما يروى) بـ « ولع شديد »^(٢٣) وكان صديقاً رائع الحسن ، يلبس لباس الأمراء ، ولكنه كان هشاً خجولاً ، حساساً كأنه بنت . وحين ماتت أمه (١٧٣٧) خشي كثيرون أن يموت الفتى ذوالعشرين ربيعاً حزناً عليها . وسرى عنه السر روبرت بوظائف حكومية شرفية تفي بنفقات ولده على الثياب الفاخرة ، والعيش الأنيق ، ومجموعة التحف الغالية وأضمر هوراس الحصرمة لأبيه إلى آخر حياته ، ولكنه كان يدافع عن سياسته دائماً .

وحين بلغ العاشرة أرسل إلى إيتين حيث تعلم اللاتينية والفرنسية وصادق الشاعر جراى ، وفي السابعة عشرة التحق بكنجز كولدج بكمبردج ، وهناك تعلم الإيطالية وتشرب الربوبية من كونيروز ميدلتن . وفي الثانية والعشرين

انطلق مع جراى فى رحلة يجوبان فيها إيطاليا وفرنسا دون أن ينال درجة
جامعية. وبعد أن طوفا قليلا استقرا خمسة عشر شهراً فى فيلا بفلورنسه ضيفين
على القائم بالأعمال البريطانى السر هوراس مان . ولم يلتق ولبول ومان بعدها
قط ، ولكنهما ظلّا يتراسلان طوال الخمس والأربعين السنة التالية (١٧٤١ —
٨٥) . وفى ريدجو اميليا تشاجر جراى وولبول ، لأن هوراس كان قد
دفع كل نفقات إقامتهما ، ولم يستطع الشاعر أن يفتخر بمظاهر الاحترام
الشديد التى كان يختص بها ابن الرجل الذى يحكم انجلترا . ولام هوراس
نفسه على هذا الوضع وهو يستحضر تلك الفترة « كنت صغيراً جداً ، شديد
والع ملامه . . . شديد الانتشاء بالتدليل ، والغرور ، وخطرة منصبى . .
بحيث تعذر على الاهتمام والإحساس بمشاعر شخص حسبته أدنى منى مقامها ،
شخص ينجلى أن أقول إنى كنت أعرف أنه مدين لى بالفضل » (٢٤) .
وافترقا ، وكاد ولبول يموت من الندم أو من التهاب اللوزتين المتيقح ، ورتب
رحلة العودة لجراى . ثم تصالحا فى ١٧٤٥ ، وطبعت معظم قصائد جراى فى
مطبعة ولبول بسترولى هل . وجلس ولبول فى هذه الفترة إلى الرسامة
روزالبا كارپيرا لتصوره فى لوحة جميلة بالباستل .

وقبل أن يصل ولبول إلى انجلترا (١٢ سبتمبر ١٧٤١) كان قد أنتخب
ضواً فى البرلمان ، وهناك ألقى خطاباً متواضعاً لم يجد فتىلاً ضد المعارضة
التى كانت جادة فى إنهاء عهد وزارة أبيه الطويل الرخى . وظل يعاد إنتخابه
بانتظام حتى ١٧٦٧ حين انسحب مختاراً من ميدان السياسة النشيطة . وكان
بوجه عام يؤيد برنامج الهوجز التحررى : يقاوم توسيع السطة الماكية ،
ويوصى بحل وسط مع ولكس ، ويندد بالرق (١٧٥٠) قبل أن يواد
ولبرفورس بتسع سنين . وقد عارض فى تحرير الكاثوليك الانجليز سياسياً
بحجة أن « البابويين والحرية نقيضان » (٢٥) . ورفض حجة الأمريكين ضد
قانون الدمغة (٢٦) ، ولكنه دافع عن مطالبه المستعمرات الأمريكية بالحرية ،
وتنبأ بأن أوج الحضارة القادم سيكون فى أمريكا (٢٧) . وكتب (١٧٨٦)
يقول « من غير ميكيافلى يستطيع الزعم بأن لنا ظل حق فى شبر من الأرض
فى الهند ؟ » (٢٨) وقد أبغض الحرب ، فلما أفلح الإنحوان مونجولفويه فى

الطيران بالبللون لأول مرة (١٧٨٣) تنبأ في فزع بانتشار الحرب إلى الجو وكتب يقول « أرجو ألا تكون هذه الشهب الميكانيكية غير لعب للعلماء أو العاطلين ، وألا تحول إلى آلات تدمير للنوع الإنساني ، كما هي الحام في كثير من الأحيان في تحسينات العلم أو كشفه » (٢٩) .

ثم قرر أن ينفق أكثر وقته في الريف حين وجد نفسه في الأغلب الأعم يقف مع الجانب الخاسر ، وعليه ففي ١٧٤٧ استأجر خمسة أفدنة وبيتاً صغيراً قرب تويكنام . وبعد عامين اشترى هذا الملك ، وحول البناء إلى الطراز القوطي الحديث - كما رأينا . في هذه القلعة التي طبعها بطابع القصر الوسيط جمع شتى التحف المتفردة فناً أو تاريخياً ، وما لبث أن استحال بيته متحفاً يحتاج إلى قائمة بمحتوياته . ووضع في حجرة مطبوعة ، طبع فيها أربعة وثلاثين كتاباً بما فيها كتبه طباعة أنيقة . وقد طلع على القراء - من ستر وبرى في أكثر الأحيان - بخطاباته الباقية إلى اليوم وعددها ٣,٦٠١ وكان له مائة صديق ، تشاجر معهم كلهم تقريباً ، ثم تصالح ، وكان لطيفاً بقدر ما سمح به مزاجه العصبي المرهف . وكان يخرج الخبز واللبن كل يوم للسناجيب التي تتودد إليه . وكان يرعى وظائفه الشرفية ويسعى للمزيد منها ، ولكن حين فصل ابن نخاله هنري كونواي من وظيفته اقترح ولبول أن يقتسم دخله معه .

وكان فيه ألف عيب ، حشدها ما كولي بتفصيل كثير في مقال ذكي جائر: لقد كان ولبول مغروراً ، نيقاً ، كتوماً ، هوائياً ، فخوراً بأجداده ، مشتمزاً من أقاربه . وكانت فكاهته تنحو إلى الهجاء المقذع . وقد حمل إلى قبره ، وفي التواريخ التي كتبها ، احتقاره لكل الذين شاركوا في خلع أبيه . وكثيراً ما عنف في تحامله ، كما نرى في أوصافه لليدى بومفريت (٣٠) أو الليدى ماري ورتلي منتجيو (٣١) . وقد نحاه جسده الهش إلى طبيعة تشبه طبيعة الهاوي السطحي . وإذا كان ديدرو ، في عبارة سانت بوف المنيرة ، أكثر الفرنسيين جميعاً ألمانية ، فان ولبول كان أكثر الانجليز جميعاً فرنسية .

وكان صريحاً شجاعاً في الإعراب عن ميوله وآرائه غير المألوفة ، ففرجل في رأيه مضجر ، ومن باب أولى رتشر دسن وستيرن . وقال عن

دائى انه « مشودى فى مستشفى المجاذيب » (٣٢) وتظاهر بأنه يحتقر كل المؤلفين ، وأصر كما أصر كنجريف على أنه يكتب كما يكتب جنتلمان لمزاجه ، لا كأديب أجير يعتمد على تسويق كلامه . ومن ثم نراه يكتب لهيوم قائلاً : « أنت تعلم أننا فى إنجلترا نقرأ كتب المؤلفين و لكن ندر أن نعبأ بهم أو لعلنا لا نعبأ بهم إطلاقاً . ونحن نراهم قد نالوا جزاء كافياً إذا راجت كتبهم ، ثم نتركهم بالطبع لكلياتهم وانغمارهم ، وبهذه الطريقة لا يزعجنا غرورهم وسلطتهم وإنى ، وأنا أحد المؤلفين ، يجب أن أعترف بأن هذا المسلك معقول جداً ، لأننا فى الحق قبيل لا نفع فيه إطلاقاً » (٣٣) .

ولكنه هو أيضاً . باعترافه - كان مؤلفاً ، مغروراً ومفرط الإنتاج . ولذا أحس الضجر فى قلعبه ، فقد راح ينقب فى الماضى كأنه يبغى الغوص بجذور عقله فى أغنى طبقات تربته . فوضع « كتاباً جافاً بمؤانى إنجلترا الملكيين والنبلاء » (١٧٥٨) - فنبلهم يغتفر لهم اشتغالهم بالتأليف ، ورجال من الطراز الأول مثل بيكن وكالارندن يمكن أن يكونوا أهلاً لأن يسلكوا فى هذه الطائفة . وطبع ثلاثمائة نسخة وزع معظمها هدايا ، وغامر درسى بطبعة من ألفى نسخة ، فبيعت بسرعة ، وجاءت لولبول بشهرة لا بد أنها جعلته ينكس رأسه خجلاً . ثم ضاعف خزيه بخمسة مجلدات عن « نوادر عن التصوير فى إنجلترا » (١٧٦٢ - ٧١) وهى تصنيف شائق ظفر بتقريظ من جيون .

ثم ألف رواية غرامية تحت للعصر الوسيط كأنه يتخفف من هذه التأليف العلمية المجهدة ، واسم الرواية « قلعة أوترانتو » (١٧٦٤) ، وقد أصبحت أما لألف قصة تروى عجائب وأحوالاً خارقة . وقد جمع بين الأسرار الغامضة والتاريخ فى « الشكوك التاريخية حول حياة الملك رتشرد الثالث وملكه » فذهب كما ذهب آخرون بعده إلى أن رتشرد قد اخترت عليه الرواية المتواتره وشيكسبير ؛ وقد وصف هيوم وجيون حججه بأنها غير مقنعة ، ولكن ولبول راح يرددتها حتى مماته . ثم تحول إلى أحداث عرفها

معرفة خبير ، فكتب مذكرات عن حكمى جورج الثانى وجورج الثالث ، وهى مذكرات منيرة ولكنها متحيزة ، نظر فيها إلى جيله بمنظار أسود لأنه كان حبيس تغرضاته : « وزراء غادرون ، وأدعياء للوطنية ، وبرلمانات مسايرة ، وملوك غير معصومين » (٣٤) . « أنى أرى وطنى يسير إلى الخراب ، وما من إنسان فيه من العقل ما يحمله على إنقاذه » (٣٥) وقد كتب هذا الكلام عام ١٧٦٨ ، حين كان شاتام قد خلق لتوه الامبراطورية البريطانية . وبعد أربعة عشر عاماً ، حين بدا أن الملك واللورد نورث سيدمرانها ، نخلص ولبول إلى هذه النتيجة « أننا منحطون انحطاطاً تاماً فى كل ناحية ، وهذا فى ظنى حال كل الدول المتهاوية » (٣٦) وبعد جيل هزمت الجزيرة الصغيره نابليون . وقد بدا النوع الإنسانى كله لولبول معرض وحوش « فيه حيوانات قيئة ، قصيرة الأجل . . . مضحكة » (٣٧) ولم يجد فى الدين أى عزاء ، وقد أيد الكنيسة الرسمية لأنها تساند الحكومة التى تدفع له رواتبه الشرفية . ولكنه لم يخف أنه ملحد (٣٨) « بدأت أرى أن الحماقة مادة ، ولا يمكن تدميرها . فإذا قضيت على شكائها ، اتخذت شكلاً آخر » (٣٩) .

وظن حيناً أن فى استطاعته العثور على شىء يحفزه فى فرنسا (سبتمبر ١٧٦٥) . وفتحت له كل الأبواب ، فرحبت به مدام دودفان بديلا عن دالامبير . وكانت فى الثامنة والستين ، وولبول فى الثامنة والأربعين ، ولكن فارق السن اختفى حين التقت روحاهما المتقاربتان فى تبادل رقيق لليأس ، وسرها أن تجد ولبول موافقاً على معظم ما قاله فولتير ، ولكنه يود لو أحرق حياً لمنع من قوله ، لأنه كان يرتعد فرقاً حين يفكر فيما يحيق بحكومات أوربا إذا انهارت المسيحية . وقد انتقص من قدر فولتير ، ولكنه سخر من روسو . وهذه الرحلة إلى باريس هى التى كتب فيها الخطاب الذى زعم أن كاتبه هو فردريك الأكبر ، يدعو روسو للذهاب إلى برلين والاستمتاع بالمزيد من الاضطهادات . « لقد انتشرت النسخ كأنها الحريق ، وهأنذا أصبحت موضوعة سرت فى المجتمع » (٤٠) وقد خلف هيوم شخصية تهافت عليها الصالونات . وتعلم أن محب إثارة باريس المرحة القاسية ، ولكن كان عزاء له أن يجد « الفرنسيين أحقر منا نحن (الانجليز) عشر مرات » (٤١) .

وبعد أن عاد إلى وطنه (في ابريل ١٧٦٦) بدأ ترأسه الطويل مع مدام دودفان . وسرى فيما بعد كيف أقلقه الخوف من أن تجعله محبتها له هزواً ، ومع ذلك فأغلب الظن أن رغبته في أن يراها من جديد هي التي حملته على العودة إلى باريس في ١٧٦٧ و ١٧٦٩ و ١٧٧١ و ١٧٧٥ . وقد أنساه حبها عمره ، غير أن موت جراي (٣٠ يوليو ١٧٧١) ذكره بفنائه هو . ولكنه أدهش نفسه بأن عمر حتى ١٧٩٧ . ولم تكن له هموم مالية ، فدخله في ١٧٨٤ كان ٨,٠٠٠ جنيه (٢٠٠,٠٠٠ دولار) في السنة^(٤٢) ، وفي ١٧٩٦ ورث لقب اللورد أكسفورد . ولكن النقرس الذي ابتلى به منذ كان في الخامسة والعشرين ظل ينغص عليه عيشه إلى النهاية . ونقرأ أن كتلا متجمعة من « الطباشير » كانت أحياناً تتفجر من أصابعه^(٤٣) . وبات هزيباً معوق الحركة في سنواته الأخيرة ، وأقتضت حالته أن يحمله الخدم أحياناً من حجرة إلى حجرة ، ولكنه واصل العمل والكتابة ، وكان الزوار إذا ألموا به يعجبون لبريق الاهتمام في عينيه ، وليقظة مجاملاته ، ومرح حديثه ، ونشاط ذهنه وصفائه ؛ وكان كبار القوم يلتمون به كل يوم تقريباً ليروا بيته المشهور ومجموعة تحفه المتنوعة ، ومنهم هانا مور في ١٧٨٦ ، والملكة شارلوت في ١٧٩٥ .

ولكن رجيله عن هذه الدنيا لم يكن في ستروبري هل . بل في بيته اللندني بميدان باركلي ، وكان ذلك في ٢ مارس ١٧٩٧ في عامه الثمانين . ويبدو أنه كان نادماً على احتواء مذكراته ورسائله الكثير من الفقرات اللاذعة ، لذلك أمر بأن تحبس مخطوطاته في صندوق لا يفتح « حتى يطالب يفتحه إيرل والد جريف الأول عند بلوغه الخامسة والثلاثين »^(٤٤) وعليه لا تنشر المذكرات إلا في عام ١٨٢٢ أو بعده ، حين يكون كل الذين قد يتأذون منها قد فارقوا هذه الحياة . وقد نشرت بعض الرسائل في ١٧٧٨ ، ومزيد منها في ١٨١٨ و ١٨٢٠ و ١٨٤٠ و ١٨٥٧ . . . وفي العالم القاريء للانجليزية طولا وعرضا رجال ونساء قرأوا كل كلمة وردت في تلك الرسائل ، وهم يقدرونها فيما يقدرون من أهبج ما خلفه القرن المنير من تراث .

٥ - إدورد جبون

كتب ولبول لأحد كبار المؤرخين ، وهو روبرتسن ، يقول « ان المؤرخين المجيدين أندر الكتاب أجمعين ، ولا غرابة في هذا ! فالأسلوب الجيد ليس بالأمر الشائع جداً ، وأندر منه الإحاطة الدقيقة الشاملة بالحقائق ، فإذا اجتمع هذان ، فيا لها من صدفة ان أضيفت إليهما النزاهة والحياد ! » (٤٥) ولم يتوفر في جبون الشرط الأخير تماماً ، ولكن هذا يقال أيضاً عن تاسيتوس ، وهو وحده الذي يمكن أن يقف معه على قدم المساواة بين أساطين المؤرخين .

أ - اعداده

كتب جبون ، أو بدأ كتابه ، ست سير ذاتيه ، أدمجها منفذ وصيته الأدبي ، وهو ايرل شفيلد الأول ، في « مذكرات . (١٧٩٦) جيدة الحبك ، منقاة دون موجب ، وتعرف أحياناً باسم « السيرة الذاتية » . كذلك كان جبون يدون يومية ، بدأها في ١٧٦١ وواصل تدوينها تحت عناوين مختلفة حتى ١٨ يناير ١٧٦٣ . وقد حكم العارفون على هذه المصادر الأولى لنشأته بأنها صحيحة إلى حد معقول ، إلا فيما يتصل بنسبه .

وقد أنفق ثمانى صفحات يفصل القول في كرم مجتده ، وقد أخذه عنه النسابون القساة (٤٦) . فجدده إدورد جبون الأول كان أحد مديري شركة البحار الجنوبية الذين قبض عليهم بتهمة الانحراف بعد أن تفجرت تلك « الفقاعة » (١٧٢١) . وصودرت كل ثروته التي قدرها بمبلغ ١٠٦,٥٤٣ جنيه ، فيما عدا ١٠,٠٠٠ جنيه . ويروى لنا المؤرخ أن على هذه البقية الباقية « بنى صرح ثروة جديدة . . . لا تقل كثيراً عن الأولى » (٤٧) ولم يكن موافقاً على زواج ابنه ادورد الثاني ، ومن ثم أوصى بمعظم ثروته لبنتيه كاترين وهستر وتزوجت بنت كاترين بإدورد اليوت ، الذي اشترى فيما بعد كرسيّاً في البرلمان لإدورد جبون الثالث ، أما هستر فأصبحت تابعة غنية من أتباع ولیم لو (٤٨) ، وغازت ابن أخيها ردمحا طويلاً بموتها البطيء . وقد تعلم ادورد الثاني على يد لو ، وأكمل تعليمه في مدرسة ونشستر وفي كبردج ، وتزوج

جوديت بورتن ، ورزق منها سبعة أطفال ، لم يجز سن الطفولة منهم خير إدورد الثالث .

وقد ولد في بنن بإقليم صرى في ٨ مايو ١٧٣٧ . وماتت أمه في ١٧٤٧ بسبب حملها السابع ، فانتقل الأب إلى ضيعة في الريف ببيتوريتن في هامبشير ، على ثمانية وخمسين ميلاً من لندن ، تاركاً الصبي في رعاية نخاله ببيت جده في بنى . هناك أكثر دارس المستقبل الانتفاع بالمكتبة الحفافة بالكتب . وقد قطعت أمراضه المتكررة تقدمه في مدرسة ونشستر ، ولكنه كان يشغل أيام نقاهته بالقراءة النهمة وأكثرها في التاريخ ، خصوصاً تاريخ الشرق الأدنى» ولم يلبث محمد (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون أن استرعوا انتباهي ، وأسلمني كتاب إلى كتاب حتى طفت بكل تاريخ المشرق . وقبل أن أبلغ السادسة عشرة كنت قد أتيت على كل ما كتب بالإنجليزية عن العرب والفرس ، والتتار والترك « (٤٩) . ومن هنا هذه النصول الرائعة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والحلفاء الراشدين ، والاستيلاء على القسطنطينية .

يروى أنه حين أرسل إلى كلية مجدلين بأكسفورد وهو في الخامسة عشرة « وصلت إليها بذخيرة من المعرفة الواسعة قد تحير فقيهاً ، وبدرجة من الجهل يندى لها جبين تلميذ » وكان فيه من الهزال ما يمنعه من الانخراط في الألعاب الرياضية ، ومن الحياء ما يصدده عن الاختلاط الطبيعي بغيره من الطلاب . وكان من الجائز أن يكون تلميذاً نابغة لوقيض له معلم كفاء : ولكنه على ما كان به من شغف بالتعليم افتقد الأستاذ الشغوف بالتعليم . وكان أكثر المعلمين يسمحون لتلاميذهم بحضور المحاضرات أو التخلف عنها ، وبنفاق نصحت وقتهم في « اغراءات البطالة » (٥٠) ومن ثم أغضوا عن « انحرافات السلوكية ، والمعاشرات الرديئة ، والسهر ، والإنفاق الطائش » ، وحتى الرحلات الترفيحية إلى باث أولندن . على أنه كان في من الحدائة والحياء ما يمنعي من الاستمتاع بمحانات كوفنت جاردن وموانخيرها كما يستمتع بها الكثير من طلاب أكسفورد حين يلعبون بلندن « (٥١) .

وكان أساتذة الكلية كلهم من رجال الدين ، يعلمون ويعلمون بمواد

الكنيسة الانجلكانية التسع والثلاثين . وكان جبون ذا نزعة قتالية ، كثير السؤال لمعلميه . ولاح له أن الكتاب المقدس والتاريخ يبران الكنيسة الكاثوليكية في دعواها بالأصل الإلهي . وحصل له أحد معارفه على بعض الكتب المقابلة ، وأهمها كتاب بوسويه « عرض للعقيدة الكاثوليكية وتاريخ المذاهب البروتستنتية » ، هذه « حققت هدايتي ، ولا شك أنني وقعت في يد نبيلة » (٥٢) . وباندفاع الشباب اعترف على كاهن كاثوليكي ، وقبل عضواً في كنيسة روما (٨ يونيو ١٧٥٣) .

وأحاط أباه علماً بالأمر ، ولم يدهشه أنه دعى للعودة إلى وطنه ، لأن أكسفورد لم تكن تقبل الطلاب الكاثوليك ، وكان دخول بروتستنتي في المذهب الكاثوليكي الروماني - طبقاً لما يقول بلاكستون بعد « خيانة عظمى » . وما أسرع ما نفي الأب المروع الفتى إلى لوزان ، ورتب أن يقيم مع راع كلفني ، هناك عاش إدورد أولاً في حالة من العناد المتجههم . ولكن المسيوبافيار كان رجلاً عطوفاً وأن أعوزه التسامح الديني ، فاستشعر الصبي المحبة له في بطاء . ثم ان الراعي كان دارساً كلاسيكياً قديراً . وتعلم جبون أن يقرأ الفرنسية ويكتبها بطلاقة كالإنجليزية ، واكتسب معرفة طيبة باللاتينية . ولم يلبث أن استقبلته الأسر المثقفة التي كانت طباعها وحديثها تعليماً يفضل ما لقيته أكسفورد من قبل .

فلما تحسنت فرنسيته أحس نسائم العقلانية الفرنسية تهب على لوزان . واختلف بابتهاج إلى التمثيليات التي قدمها فولتير في مونريون القريبة منه . وهو بعد في العشرين (١٧٥٧) . « وكنت أحياناً أتعشى مع الممثلين » (٥٣) . والتقى بفولتير ، وبدأ يقرأ فولتير ، وقرأ كتاب فولتير الحديث « مقال في التاريخ العام » (مقال في الأعراف) . وأكب على كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) وأصبح كتاب « تأملات في أسباب عظمة الرومان وتدهورهم » (١٧٣٤) نقطة الانطلاق لكتاب جبون « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » . أيا كان الأمر ، فإن تأثير الفلاسفة الفرنسيين ، فضلاً عن قراءته لهيوم والربوبيين الانجليز ، قوياً مسيحية جبون وكاثوليكيته

على السواء ، وأبطل قبول جبون للتنوير سرّاً الإلتصار الذي أحرزه باقيار للإصلاح البروتستنتي .

ولابد أن روحه انتشت حين التقى في العام نفسه (١٧٥٧) بكل من فولتير وسوزان كورشو ، وكانت في العشرين ، شقراء ، حسناء ، مرحة ، تعيش مع أبويها البروتستنتيين في كراسي ، على أربعة أميال من لوزان ، وكانت الروح القائدة في « جماعة الربيع » - وهي لفيف من خمس عشرة شابة أو عشرين يلتقين في بيوت بعضهن البعض ، ويغنين ، ويرقصن ، ويمثلن الكوميديات ، ويغازان الشباب في حكمة وتعقل . ويؤكد لنا جبون أن « عفهن لم تلوثها قط همسة فضيحة أو شبهة » . ولندعه يروي القصة : « في زيارتها القصيرة لبعض أقربائها في لوزان كان ظرف الأنسة كورشو ، وجهاها ، وسعة علمها ، محل إعجاب الجميع . وقد أثار فضولي نبأ هذه العجيبة . فرأيت ، وأحببت . وجدتها مثقفة دون تنطع ، مرحة في حديثها ، نقية في عاطفتها ، وشيقة في طباعها . . . وكانت ثروتها متواضعة ، ولكن أسرتها محترمة . . . وقد أذنت لي بأن أزورها مرتين أو ثلاثاً في بيت أبيها . وأنفقت أياماً سعيدة هناك . . . وقد شجع والدها هذه الصلة تشجيعاً كريماً فأشبعت حلمي بالسعادة العظمى » (٥٤) .

ويبدو أن خطبتهما عقدت رسمياً في نوفمبر ١٧٥٧ (٥٥) ، ولكن موافقة سوزان كانت مشروطة بوعدها جبون بالعيش في سويسره (٥٦) . وفي غضون هذا أمره أبوه - الواصل بأن ابنه قد غدا الآن بروتستنتياً صالحاً - بأن يعود إلى وطنه ويستمع إلى الخطط التي وضعت له . ولم يكن جبون حريصاً على العودة ، لأن أباه كان قد اتخذ زوجة ثانية ، ولكنه أطاع ، ووصل لتدن في ٥ مايو ١٧٥٨ . « وسرعان ما تبينت أن أبي يرفض هذا الزواج الغريب ، وأني سأكون مملقاً عاجزاً إذا أبي الموافقة . وبعد كفاح أليم أذعنت لإرادة أبي : تنهدت كعاشق وأطعت كإبن » (٥٧) . ثم نقل تنهده إلى سوزان برسالة كتبها في ٢٤ أغسطس . ورتب له أبوه راتباً سنوياً قدره ٣٠٠ جنيه . وكسبت زوج أمه عرفانه بتصنيعها لأنها لم تنجب ، ولم يلبث أن نمت في

قلبه محبتها . وأنفق شطراً كبيراً من دخله على الكتب ، و « كونت بالتدريج مكتبة كبيرة منتقاة ، هي ركنزة مؤلفاتي ، وخير عزاء لي في الحياة » (٥٨) .

وكان قد بدأ مقالاً في لوزان وأتمه في بوريون (حيث كان ينفق الصيف)
وعنوان المقال « في دراسة الأدب » : ، وقد نشر بلندن في ١٧٦١ وبجنيف في ١٧٦٢ . وإذ كان مكتوباً بالفرنسية ، يتناول أول ما يتناول الأدب والفلسفة الفرنسية ، فإنه لم يثر ضجة في إنجلترا ، ولكنه استقبل في القارة استقبالا إنجازاً ممتازاً لفتى في الثانية والعشرين . وقد احتوى بعض الأفكار ذات الدلالة في كتابة التاريخ . « ان تاريخ الامبراطوريات هو تاريخ شقاء الإنسان ، وتاريخ المعرفة هو تاريخ عظمته وسعادته . . . والاعتبارات الكثيرة تجعل هذا النوع الثاني من الدراسة غالياً في عيني الفيلسوف » (٥٩) . ومن ثم « إذا لم يكن الفلاسفة دائماً مؤرخين ، فن المرغوب فيه على الأقل أن يكون المؤرخون فلاسفة » (٦٠) . وقد أضاف جبون في « مذكراته » هذه العبارة « منذ شباني الباكر تاقت نفسي إلى أن أكون مؤرخاً » (٦١) . وراح يفتش عن موضوع يلائم الفلسفة والأدب كما يلائم التاريخ . أما التاريخ في القرن الثامن عشر فلم يدع أنه علم من العلوم ، لا بل انه تاق إلى أن يكون فناً . أما جبون فأحسن بأنه يريد أن يكتب التاريخ بوصه فياسوفاً وفناناً : يعالج موضوعات واسعة في منظور واسع ، ويسبغ على فوضى المواد دلالة فلسفية وشكلاً فنياً .

غير أنه دعى فجأة من الدراسة إلى العمل . ذلك أن إنجلترا تعرضت غير مرة خلال حرب السنين السبع لخطر الغزو من فرنسا . واستعداداً لهذا الطارئ كون أعيان الانجليز مليشياً تذود عن البلاد خطر الغزو أو التمرد . ولم يسمح إلا لدوى الأملاك بأن يكونوا صباطاً . وعين جبون الأب ضابطاً كبيراً والإبن ضابطاً صغيراً في يونيو ١٧٥٩ . والتحق ادورد الثالث بفرقة في يونيو ١٧٦٠ ، وبقي معها حتى ديسمبر ١٧٦٢ فترات منقطعة ، يتنقل من معسكر إلى معسكر . ولم يكن بالرجل الصالح للحياة العسكرية ، وأصابه « المال من رفاق لم يؤتوا معرفة الدارسين ولا طباع السادة المهذبين » (٦٢) .

وفي حياته العسكرية وجد صفته يتمدد بما فيه من سائل . « اضطررت اليوم (٦ سبتمبر ١٧٦٢) لاستشارة الجراح المستر أندروز في أمر علة أهملتها بعض الوقت ، وهي ورم في خصيتي اليسرى يخشى أن تكون خطيرة » (٦٣) . ففصد وأعطي مسهلاً ، ولم يسفر هذا العلاج إلا عن تخفيف مؤقت . وقد قدر لهذه « العلة » أن تعذبه حتى كانت القاضية عليه .

وفي ٢٥ يناير ١٧٦٣ انطلق في رحلة إلى القارة . وتوقف برهة في باريس حيث التقى بدلامبير ، وديدرو ، ورينال ، وغيرهم من نجوم حركة التنوير . « كان لي مكان خلال أربعة أيام في الأسبوع . . . على الموائد المضيافة للسيدات جوفران وبوكاج ، وهلفتوس الذائع الصيت ، والبارون دولباخ . . . ومرقت أربعة عشر أسبوعاً دون أن أحس بها ، ولكن لو كنت غنياً غير معتمد على أبي لأظلت المكث في باريس وربما جعلتها مستقرى » (٦٤) .

وفي مايو ١٧٦٣ وصل إلى لوزان حيث أقام قرابة عام . ورأى الأنسة كورشو ، ولكن حين وجدها موفقة في خطبتها ، لم يحاول أن يجدد صداقته بها . ويعترف في هذه الزورة الثانية لسويسره قائلاً « ان عادات المليشيا وتمثلي بمواطني أفضيا بي إلى شيء من الإفراط الصناخب في الشراب ، وقبل أن أرحل كنت قد فقدت عن جدارة رأى الناس الطيب في ، وهو الرأى الذى ظفرت به في أيام سلوكى الأفضل » (٦٥) . وقد خسر مبالغ كبيرة في القمار ، ولكنه واصل دراساته اعداداً لإيطاليا ، مكباً على القديم من المداليات ، والعملات ، وأدلة السياح ، والحرائط .

وفي ابريل ١٧٦٤ عبر جبال الألب . وأنفق ثلاثة أشهر في فلورنسة ، ثم مضى إلى روما . وأرشده مغرب استكلندى بين أطلال العصر الكلاسيكى القديم « في جهد يومية امتد ثمانية عشر أسبوعاً » . يقول « في روما ، وفي الخامس عشر من أكتوبر ١٧٦٤ ، بينما أنا جالس مستغرقاً في تأملاتى وسط خرائب الكابيتول ، وبينما الرهبان الحفاة يرتلون صلوات العشاء في معبد جوبتر ، خطرت لي لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال وسقوط المدينة لا الامبراطورية » (٦٦) . وانتهى به التفكير إلى أن يرى في ذلك التفسخ المدمر

« أعظم بل ربما أرهب مشهد في تاريخ الإنسان »^(٦٧) . وبعد أن ألم بنابلي ، وبادوا ، والبندقية ، وفتشنتسا ، وفيرونا ، عاد إلى لندن بطريق تورين وليون وباريس (« أسبوعان سعيدان آخران ») (٢٥ يوليو ١٧٦٥) ،

وكان يقضى معظم وقته الآن في بوريوتون ، لذلك سمح لنفسه بأن يتلهى بالبده في كتابة تاريخ لسويسره بالفرنسية : فاما رأى هيوم المخطوطة في لندن ، كتب إلى جبون (٢٤ أكتوبر ١٧٦٧) يرجوه أن يستعمل الانجليزية ويتنبأ بأن الانجليزية ستزعم قريب الفرنسية انتشاراً ونفوذاً ، ثم نبه جبون إلى أن استعماله للفرنسية أسلمه « إلى أسلوب فيه من الشعاعية والمجاز والإسراف في التلوين أكثر مما تسمح به لغتنا في المؤلفات التاريخية »^(٦٨) . وقد اعترف جبون بعد ذلك قائلاً « ان عاداتي القديمة . . . شجعتني على أن أكتب بالفرنسية لقارة أوربا ، ولكنني أنا نفسي كنت شاعراً بأن أسلوبى ، الذى كان يعلو على النثر ويدنو عن الشعر ، قد انحدر إلى أسلوب خطابي طنان شديد الاطناب »^(٦٩) .

ونخلف له موت أبيه (١٠ نوفمبر ١٧٧٠) ثروة وفيرة . وفي أكتوبر ١٧٧٢ اتخذ مقامه الدائم في لندن . « وما ان استقر في المقام في بيتى ومكتبى حتى اضطلعت بتأليف المجلد الأول من تاريخى »^(٧٠) .

وقد سمح لنفسه بألوان كثيرة من الترفيه - أمسيات في بيت هوايت ، واختلاف إلى « نادى » جونسن ، ورحلات إلى برايتن ، وباريس ، وفي ١٧٧٤ أنتخب عضواً في البرلمان عن « دائرة جيب » يتحكم فيها قريب له ، وقد لزم الصمت وسط المناقشات التى دارت في مجلس العموم . وكتب (٢٥ فبراير ١٧٧٥) يقول « مازلت صامتاً . أن الأمر أرهب مما تصورت ، وفحول الخطابة يملأونى بأساً ، وضعافهم يملأونى رعباً »^(٧١) . غير أن « الدورات الست التى قضيتها في البرلمان كانت لي مدرسة علمتني الحكمة المهذبة ، وهى أولى فضائل المؤرخ وألزمها »^(٧٢) وحين اكتنفه الجدل حول أمريكا ، صوت بانتظام في جانب سياسة الحكومة ، ووجه للأمة الفرنسية « مذكرة تبريرية » (١٧٧٩) بسط فيها حجج انجلترا ضد مستعمراتها

الثائرة . وقد أجزى بمقعد في مجلس التجارة والمزارع ، أتاه بسبعمائة وخمسين جنياً في السنة . وأهمه فوكس بالتكسب من ذلك الفساد السياسى الذى أوضح أنه من أسباب اضمحلال روما (٧٣) . وقال الظرفاء ان جورج الثالث اشترى جبون مخافة أن يسجل اضمحلال وسقوط الامبراطورية البريطانية (٧٤) .

ب - الكتاب

كان مشغل جبون الشاغل بعد عام ١٧٧٢ كتابه فى التاريخ ، وقد وجد من العسير عليه أن يفكر جدياً فى أى شىء سواه . « لقد بذلت محاولات كثيرة قبل أن أستقر على أسلوب وسط بين سجل الأخبار الممل والعرض الخطائى البليغ . وكتبت الفصل الأول ثلاث مرات ، والثانى والثالث مرتين ، قبل أن أرى رضاء معقولاً عن وقعها » (٧٥) . لقد عقد العزم على أن يجعل كتابه التاريخى أثراً أدبياً .

وفى ١٧٧٥ عرض جبون مخطوطة الفصول الستة عشر الأولى على ناشر رفضها لأنها تكلفه ثمناً غالياً يحول دون النشر . واشترك كتيبان آخران هما توماس كولدويل ووليم سترهان فى مغامرة طبع المجلد الأول من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧ فبراير ١٧٧٦) . وبيعت النسخ الألف بحلول ٢٦ مارس رغم أن الكتاب سعره بجنيه انجليزى (٢٦ دولاراً) . ونفدت طبعة ثانية من ألف وخمسمائة نسخة صدرت فى ٣ يونيو بعد صدورها بثلاثة أيام . « كان كتابى على كل خوان ، وعلى كل تسريحة تقريباً » (٧٦) . وأجمعت دنيا الأدب على الثناء عليه وهى على ما عهد فيها من تحاسد وتنابد يمزقها . وبعث وليم روبرتسن إلى المؤلف بعبارات التحية السخية ، أما هيوم فقد كتب فى هذا العام الذى مات فيه إلى المؤلف رسالة يقول جبون إنها (أجزلت له المكافأة على جهد سنين عشر (٧٧) . وصرح هوراس ولبول غداة نشر الكتاب لوليم ميسن : « ها قد صدر للتو والساعة أثر من عيون الأدب حقاً » .

وقد استهل الكتاب استهلالاً منطقياً وجريئاً بثلاثة فصول عميقة فصلت

الامتداد الجغرافي والتنظيم العسكري والبناء الاجتماعي والتكوين القانوني للإمبراطورية الرومانية عند موت مرقص أوريليوس (١٨٠ م) وفي رأي جبون أن السنين الأربع والثمانين السابقة لهذا التاريخ قد شهدت الإمبراطورية في أوج كفاية موظفيها ورضى شعوبها .

« لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد فترة في تاريخ العالم كانت فيها حال النوع الإنساني غاية في السعادة والرخاء ، لاختار دون تردد الفترة التي امتدت من وفاة دوميشيان (٩٦) إلى تولى كومودس (١٨٠) . فقد كان فملك الإمبراطورية الرومانية الشاسع محكوماً بسلطة مطلقة ، وبهدى من الفضيلة والحكمة . وكانت الجيوش تضبطها يد أربعة أباطرة متعاقبين ، جمعت بين الحزم والرفق ، وهم حكام فرضت شخصياتهم وسلطتهم الاحترام التلقائي . وصان أشكال الإدارة المدنية في عناية ودقة الأباطرة نيرفا ، وتراجان ، وهادريان ، والانطونيان ، هؤلاء الذين كانت صورة الحرية مبعث ابتهاج لهم ، وسرهم أن يروا أنفسهم خدام القوانين والمشوانين . . . ولقيت جهود هؤلاء الملوك خير جزاء في فخر الفضيلة الحق ، والبهجة العميقة ، يستشعرونها حين يرون السعادة العميقة التي كانوا صناعها» (٧٨) .

غير أن جبون أدرك « تزعر السعادة التي تعتمد بالضرورة على خلق رجل واحد . ولعل اللحظة القاضية كانت وشيكة ، حين يسىء فتى اباحي أو طاغية محسود . . استعمال الساطة المطلقة» (٧٩) . لقد كان « الأباطرة الصالحون » تنتخبهم ملكية متبنية - فكل حاكم يورث ساطانه لعضو مختار ومدرب من حاشيته . وقد سمح مرقص أوريليوس بأن يرث الساطة الإمبراطورية ابنه الحقيير كومودس ، وأرخ جبون اضمحلال الإمبراطورية منذ توليه العرش .

ثم ذهب جبون إلى أن ظهور المسيحية أعان على ذلك الاضمحلال . وهنا تخلى عن اتباع رأي مونتسكيو الذي لم يقل شيئاً كهذا في كتابه «عظمة الرومان وانحطاطهم» ، إنما اتبع فواتير ، وكان موقفه عقلانياً خالصاً ، فقد تجرد من أي ميل للنشوة الصوفية أو الإيمان المملوء بالرجاء ،

وأعرب عن رأيه في فقرة تشتم فيها نكهة فولتيرية . قال : « ان شتى أساليب العبادة السائدة في العالم الروماني كانت كلها في نظر الشعب سواء في الصدق وفي نظر الفيلسوف سواء في الكذب ، وفي نظر الحاكم سواء في النفع . وهكذا أثمر التسامح انسجاماً دينياً » (٨١) ، وكان جبون يتجنب عادة أى تعبير مباشر بعذائه للمسيحية ، فقد كانت لا تزال هناك قوانين في سجلات انجلترا التشريعية تعد هذا التعبير جريمة خطيرة . مثال ذلك « إذا أنكر شخص نشىء على الديانة المسيحية ، كتابة » ، . . . صدق المسيحية ، كان عقابه إذا عاد . . . السجن ثلاث سنوات دون قبول كفالة عنه » (٨١) . ودرءاً لهذا العناء اتخذ جبون الأملح الحفي والتهمك الشفاف عنصريين من عناصر أسلوبه ، ونوه في حرص إلى أنه لن يناقش مصادر المسيحية الأولية وفوق الطبيعية ، بل سيكتفى بمناقشة العوامل الثانوية والطبيعية في أصل المسيحية ونموها ، وأدرج في هذه العوامل الثانوية « أخلاقيات المسيحيين الطاهرة الصارمة » في القرن المسيحي الأول ، ولكنه أضاف عاملاً آخر « غيرة المسيحيين غيرة لا مرونة فيها (ولا تسامح ان جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير) » (٨٢) ومع أنه امتدح « وحدة الجمهورية المسيحية وانضباطها » ، فإنه لاحظ أنها « شيئاً فشيئاً كونت دولة مستقلة متعاضمة في قلب الإمبراطورية الرومانية » (٨٣) ، وقد رد بوجه عام تقدم المسيحية في أول عهدها إلى العملية الطبيعية لا إلى المعجزة ، ونقل الظاهرة من اللاهوت إلى التاريخ .

ولكن كيف أعانت المسيحية على اضمحلال روما ؟ أولاً بإضعاف إيمان الشعب بالدين الرسمي . وبذلك قوضت أساس الدولة التي سندها ذلك الدين وقديسها . (وهذا بالطبع كان بالضبط حجة اللاهوتيين على جماعة الفلاسفة) . وارتابت الحكومة الرومانية في المسيحيين بحجة أنهم يؤلفون جماعة سرية معادية للخدمة العسكرية ، ويصرفون الناس عن الأعمال النافعة إلى التركيز على الخلاص السماوي . (فالرهبان في رأى جبون كانوا رجالاً متبطلين استسهلوا التسول والصلاة عن العمل) . أما الملل الأخرى فكان في الاستطاعة التسامح معها لأنها كانت متسامحة ولأنها لم تعرض وحدة الأمة للخطر ، وكان المسيحيون هم الملة الجديدة الوحيدة التي نددت بسواها

من الملل وحكمت عليها بأنها شريرة هالكة ، وتنبأت صراحة بسقوط « بابل » -
أى روما (٨٤) . وقد عزا جبون قدراً كبيراً من هذا التعصب لأصل
المسيحية اليهودية ، وذهب مذهب تاسيتوس في التنديد باليهود في نقاط
شتى في روايته . وسحاول أن يفسر اضطهاد نيرون للمسيحيين على أنه في
حقيقته اضطهاد لليهود (٨٥) ، وليس لهذه النظرية اليوم مؤيد . وكان أكثر
توفيقاً في اتباع رأى فولتير في انقاص عدد المسيحيين الذين استشهدوا على
يد الحكومة الرومانية ، فلم يزيدوا في تقديره على الألفين على الأكثر ،
ووافق فولتير على أن « المسيحيين ، على مدى خلافاتهم الداخلية
(منذ قسطنطين) أوقعوا بعضهم ببعض من أعمال القسوة ما هو أفدح
بكثير مما لا قوة من تعصب الكفار » ، وأن « كنيسة روما دافعت بالعنف
عن الإمبراطورية التي اكتسبتها بالحيلة » (٨٦) .

وقد أثار هذان الفصلان الختاميان (١٥ - ١٦) ردوداً كثيرة اتهمت
جبون بعدم الدقة ، أو التحيف ، أو عدم الإخلاص . أما جبون ففي تجاهل
مؤقت لنقاده سمح لنفسه بالاستمتاع بأجازة طويلة في باريس (مايو إلى
نوفمبر ١٧٧٧) . ودعته سوزان كورشو التي أصبحت زوجة جاك نكير
المصرفي ووزير المالية إلى بيتهم . وكانت الآن في وضع مريح جداً بحيث
لم يسرها ما سبق من أنه « تنهد تنهد العاشق ، وأطاع طاعة الابن » . أما
المسيو نكير ، الذي لم تخالجه الغيرة قط ، فكثيراً ما كان يترك العاشقين
السابقين وحيالين ويمضى إلى عمله أو فراشه . وشكاً جبون قائلاً « أمكن
أن يهيناني إهانة أقسى من هذه ؟ يا لها من طمأنينة وقمحة ! » أما جرهمين ،
ابنة سوزان ، (وهي التي أصبحت فيما بعد مدام دستال) فقد طابت لها
صحبتة حتى لقد جربت ألاعيبها المنفتحة عليه (وهي بعد في الحادية عشرة)
وعرضت أن تزوجه حتى تحفظ به في الأسرة (٨٧) . وفي بيت نكير التي
بالإمبراطور يوزف الثاني ، وفي فرساي قدم إلى لويس السادس عشر ،
الذي قيل إنه شارك في ترجمة المجاد الأول إلى الفرنسية . واحتفى به القوم
في الصالونات لاسيما صالون المركيزة دودفان ، التي وجدته « لطيفاً
مؤدباً . . . أرقى من جميع الأشخاص الذين أعيش معهم تقريباً » ، ولكنها

حكمت على أسلوبه بأنه « منمق ؛ خطابي » ، وأنه « يجرى على طريقة أدبائنا المعترف بهم ^(٨٨) . وقد رفض دعوة من بنيامين فرانكان ، ببطاقة ذكر فيها أنه مع احترامه للمبعوث الأمريكي رجلاً وفياسوفاً ، إلا أنه لا يستطيع أن يراه أمراً ينسجم مع واجبه قبل مليكه أن يدخل في أي حديث مع رجل من الرعايا الثائرين . ورد فرانكلين بأنه يكن من الاحترام الشديد للمؤرخ ما يجعله سعيداً - أن نخطر لجبون يوماً أن يتخذ من اضمحلال الإمبراطورية البريطانية وسقوطها موضوعاً للتأليف - بأن يزوده ببعض المواد المتصلة بالموضوع » ^(٨٩) .

فلما عاد جبون إلى لندن ، أعد رداً على نقاده - « دفاع عن بعض فقرات وردت في الفصلين الخامس عشر والسادس عشر من تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٩) وقد تناول خصومه اللاهوتيين في إيجاز ورفق ، ولكنه احتد قليلاً في رده على هنري ديفز ، وهو فقي في الحادية والعشرين كان قد اتهم جبون في كتاب من ٢٨٤ صفحة بأخطاء سبها عدم الدقة . وقد اعترف المؤرخ ببعض الأخطاء ولكنه أنكر « تعمد التحريف ، والأخطاء الجسيمة ، والانتحالات الدليّة » ^(٩٠) . واستقبل هذا « الدفاع » عموماً على أنه رد موفق . وبعدها لم يرد جبون على النقد إلا عرضاً في « المذكرات » ، ولكنه وجد مكاناً لبعض المديح الذي أسبغه على المسيحية على سبيل المصالحة في أجزاء الكتاب التالية .

وقد ازداد تأليفه سرعة بفقده كرسيه في البرلمان (أول سبتمبر ١٧٨٠) ، فصدر المجلدان الثاني والثالث من « التاريخ » في أول مارس ١٧٨١ وقد استقبلا استقبالا هادئاً . ذلك أن غزوات القبائل الهمجية كانت قصة قديمة ، أما المناقشات الطويلة المتخصصة للهرطقة التي أثارت الكنيسة المسيحية في القرنين الرابع والخامس فلم يكن فيها ما يشوق جيلاً من الشكاك الديويين . وكان جبون قد أرسل سلفاً نسخة من المجلد الثاني إلى هوراس ولبول ، فزار الآن ولبول في ميدان باركلي ، وأحزنه أن يقال له « إن في الكتاب إسهاباً كثيراً عن الأريوسيين والأونوميين وأشباه البلاحيين . . . بحيث أني أخشى

أن القليلين سيصبرون على قراءة القصة رغم أنك كتبتها كأفضل ما يمكن كتابتها». وكتب ولبول يقول «من تلك الساعة إلى الآن لم أراه قط، مع أنه اعتاد أن يزورني مرة أو مرتين كل أسبوع»^(٩١). وقد وافق جبون فيما بعد على رأى ولبول^(٩٢).

واستعاد المجلد الثاني الحياة حين تصدره قسطنطين. وقد فسر جبون دخوله الشهير في المسيحية على أنه عمل من أعمال الخنكة في فن الحكم. ذلك أن الامبراطور كان قد أدرك أن تنفيذ أحكام القوانين أمر قاصر وغير مأمون، وأنها قلما تلهم بالفضيلة، وليس في قدرتها دائماً أن تكبح جماح الرذيلة». وفي وسط فوضى الأخلاق والاقتصاد والحكم في الإمبراطورية الممزقة، «قد يلاحظ حاكم حصيف في سرور تقديم دين يبث بين الناس فسقاً من المبادئ الخلقية نقياً خيراً شاملاً للجميع، مكيفاً لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها، مزكى باعتباره إرادة الإله الأعلى وفكره، منفذاً بتكريس من الثواب أو العقاب الأبديين»^(٩٣). أي أن قسطنطين أدرك أن العون المستمد من دين فوقطبيعي هو عون عظيم القيمة للأخلاق والنظام الاجتماعي والحكومة. ثم جرى قلم جبون بمائة وخمسين صفحة بليغة محايدة عن يولييان المرتد.

وقد ختم الفصل الثامن والثلاثين والمجلد الثالث بهامش امتدح ما تحلى به جورج الثالث من «حب خالص كريم للعلم وللشعر». وفي يونيو ١٧٨١، وبمساعدة اللورد نورث، أعيد انتخاب جبون للبرلمان، حيث استأنف تأييده للوزارة. على أن سقوط اللورد نورث (١٧٨٢) أنهى حياة مجلس التجارة وأطاح بوظيفة جبون فيه؛ «لقد جردت من راتب مريح مقداره ٧٥٠ جنيه في العام»^(٩٤). فلما شغل نورث مكاناً في وزارة ائتلاف (١٧٨٣)، تقدم جبون بطلب وظيفة شرفية أخرى. ولكنه لم ينالها «ما كنت لأستطيع بغير دخل إضافي أن أحتفظ طويلاً أو بحكمة وتدبر بأساوب الإنفاق الذي ألفته»^(٩٥). وقدّر أن في استطاعته الاحتفاظ بذلك الأساوب في اوزان، حيث كان لجنهاته الاسترلينية ضعف قوتها الشرائية في لندن. وعليه فقد

استقال من البرلمان ، وباع كل ممتلكاته المنقولة غير الشخصية ، فيما خلا مكتبته ، وفي ١٥ سبتمبر ١٧٨٣ رحل عن لندن « بدخانها وراثتها وضوضائها » قاصداً لوزان . وهناك قاسم صديقه القديم جورج ديفردان قصراً مريحاً . وأنا أشرف على منظر مترام يجمع بين الوادى والجبل والماء ، بدلاً من الإطلال على حوش مبلط مساحته اثنا عشر قدماً مربعاً » (٩٦) . ووصلته كتبه الألفان بعد أن تأخرت قليلاً ، فشرع فى تأليف المجلد الرابع .

وكان قد خطط أول الأمر أن ينهى « الاضمحلال والسقوط » بفتح روما عام ٤٧٦ . ولكنه بعد أن نشر المجلد الثالث « بدأت أتوق إلى الواجب اليومى ، إلى البحث النشط الذى يسبغ على كل كتاب قيمة ، وعلى كل تحقيق هدفاً » (٩٧) . ومن ثم استقر رأيه على أن يفسر عبارة « الإمبراطورية الرومانية » على أنها تنتظم الإمبراطورية الشرقية كما تنتظم الغربية ، وأن يواصل قصته حتى يبلغ بها تدمير الحكم البيزنطى بفتح الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٣ . وهكذا أضاف ألف سنة إلى مجال دراسته ، واضطلع بمئات المواضيع الجديدة التى تتطلب البحث الشاق المضنى .

وقد احتوى المجلد الرابع على فصول رائعة عن جستنيان وبلساريوس ، وفصل عن القانون الرومانى ظفر بمديح عظيم من فقهاء القانون ، وفصل ممل عن مزيد من الحروب التى استعرت بين اللاهوتيين المسيحيين . كتب ولبول يقول : « ليت المستر جبون لم يسمع قط بالمونوفيزيين (القائلين بطبيعة المسيح الواحدة) أو النساطرة أو أى من هؤلاء الحمقى ! » (٩٨) . وقد تحول جبون فى المجلد الخامس فى تخفيف واضح إلى ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وفتح العرب للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وأغدق على النبى والخلفاء الحربيين كل التفهم المحايد الذى نخانة فى حديثه عن المسيحية . وأعطته الحروب الصليبية موضوعاً مثيراً آخر فى المجلد السادس ، وكان استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية الذروة لمؤلفه والتاج الذى تكلم عمله .

وقد لخص جهوده فى الفصل الأخير فى جملة مشهورة : « لقد وصفت

انتصار الهمجية والدين» (٩٩). ولم ير في العصور الوسطى غير الفجاجة والخرافة وهو ما رآه فيها فولتير ، أستاذه الذي لم يقر بفضاه . وقد صور حالة الخراب التي آلت إليها روما في ١٤٣٠ واستشهد برثاء بودجو لها إذ قال « ليت شعري أي خطب دهي هاء الدنيا هذا ! لشدها أنهار ، وتغير ، وشاه منظرا ! » - رأى خراب الآثار والفن الكلاسيكيين أو تهدههما ، وساحة روما وقد حجبتها نمو الحشائش واحتلتها الماشية والخنازير . واختتم جبون في حزن بهذه العبارة « وسط خرائب الكابيتول خطر لي لأول مرة خاطر القيام بهذا العمل الذي أهبج ودرب عشرين سنة من حياتي تقريباً ، عمل أسلمه في النهاية إلى فضول جمهور القراء وصراحتهم أيا كان قصوره عن أن يدرك مرامي » . وقد استحضر في « مذكراته » تلك الساعة ، ساعة الخلاص المفعمة بالمشاعر المتناقضة :

« في عشية السابع والعشرين من يونيو ١٧٨٧ ، بين الحادية والثانية عشرة ، كتبت آخر السطرور في آخر صفحة ، في ظلة صيفية في حديقة ، وبعد أن وضعت قلمي تجولت مرات . . . في ممشي مغطى من أشجار السنط ، يشرف على مشهد يجمع بين الريف ، والبحيرة ، والجبال . . . ولست أريد إخفاء مشاعر الفرح التي غمرتني لاستعادتي حريتي ، وربما لتوطيد شهرتي . ولكن سرعان ما أذلت كبرياتي وأشاعت في عقلي اكتئاباً هادئاً ، فكرة فراق الأبد لرفيق قديم أنيس ، وأنه أيا كان مصير كتابي مستقبلاً ، فإن حياة المؤرخ لا محالة قصيرة مزعجة » (١٠٠) .

ج - الرجل

وصف المسيو بافيار جبون وهو في السادسة عشرة بأنه « جسد قصير نحيل يعلوه رأس كبير » (١٠١) . وإذ كان يكره الرياضة ويحب الطعام (١٠٢) ، فإنه سرعان ما اكتسب استدارة في الجسم والوجه ، وأصبح له كرش محترم يعتمد على ساقين نحيلتين ، أضف إلى ذلك شعراً أحمر جعله من الجنب وعقصة من الخلف ، وقسمات ملائكية لطيفة ، وأنفاً دقيقاً ، وخذلين منتفخين ، وذقناً ملغداً ، وأهم من ذلك كله جبين عريض عال يعدب « إنجازات

عظيمة القدر والخطر» والجلال واتساع المرى . وكان قريباً لجونسن في شهيته ولولبول في نقرسه . وقد تضخم صفته بشكل مؤلم عاماً بعد عام حتى أبرزته سراويله الضيقة بروزاً مزعجاً . ولكنه رغم معايبه كان مغروراً بمظهره ولباسه ، وصدر المجلد الثاني من كتابه بصورته التي رسمها له رينولدز . وكان يحمل علبة نشوق في خاصرته ، وينقر عليها نقرأ خفيفاً إذا احتد أو أراد أن يصغى إليه سامعه . وكان أنانياً شأن أى رجل له هدف يستغرقه . ولكنه كان صادقاً « لقد وهبت مزاجاً بشوشاً ، وحساسية معتدلة (ولكن دون اسراف في العاطفة) وميلاً فطرياً للاسترخاء » (١٠٣).

وفي ١٧٧٥ أنتخب عضواً في « النادى » . وكان كثير التردد عليه نادر الكلام فيه ، يبغض فكرة جونسن عن الحديث . وكان جونسن يعلق على « دمامة » جبون على نحو مسموع أكثر مما ينبغى (١٠٤) ، أما جبون فكان يصف هذا « الدب الأكبر » بأنه « علام حكيم » وأنه « عدولا يغفر » ، و « عقل متعصب تعصباً أعمى وإن كان قوياً ، يتلقف أى عذر ليبغض من يخالفون عقيدته ويضطهدهم » (١٠٥) . وأما بوزويل ، الذى لم يكن يشعر بشفقة على غير المؤمنين ، فقد وصف المؤرخ بأنه « إنسان دميم مغرور مقزز » ينغص على « منتدانا الأدبى » . ومع ذلك فلا بد أن جبون كان له أصدقاء كثيرون ، لأنه وهو فى لندن كان يتناول العشاء خارج بيته كل ليلة تقريباً .

وقد قدم من لوزان إلى لندن فى أغسطس ١٧٨٧ ليشرّف على طبع المجلدات الرابع والخامس والسادس ، والتي صدرت فى عيد ميلاده الحادى والخمسين فى ٨ مايو ١٧٨٨ ، وأتته بأربعة آلاف من الجنيهات ، ويعد هذا من أعلى الأتعاب المدفوعة لمؤلف فى القرن الثامن عشر . يقول « ان خاتمة مؤلفى عمت قراءتها واختلاف الحكم عليها . . . ومع ذلك يبدو على الجملة أن « تاريخ الاضمحلال والسقوط قد أصل جذوره سواء فى أرض الوطن أو خارجه ، ولعل ذمه سيستمر ربما بعد مائة عام » (١٠٦) . وكان آدم سميث قد وضعه فعلاً « على رأس معشر الأدباء قاطية ، الموجودين الآن فى

أوربا» (١٠٧) . وفي ١٣ يونيو ١٧٨٨ ، خلال محاكمة هيستنجز في وستمنستر هول ، طاب لجبون أن يسمع من شرفة الزوار شريدان يشير في خطاب من أروع خطبه إلى «صفحات جبون الوضاعة» (Luminous) (١٠٨) . وفي رواية غير محتملة التصديق أن شريدان زعم فيما بعد أنه قال (Voluminous) أى الغزيرة الإنتاج (١٠٩) ، ولكنها صفة لا يمكن أن تنعت بها الصفحات ، والصفة الأولى هي ولا ريب اللفظ المطابق لمقتضى الحال .

وفي يوليو ١٧٨٨ قفل جبون إلى لوزان . وبعد عام مات ديفردان مخلفاً بيته لجبون ما بقي من عمر المؤرخ . هنالك عاش جبون في رغد ، يقوم على خدمته عدة خدم ويأتيه دخل قدره ١,٢٠٠ جنيه في العام ، وشرب النبيذ الكثير ، وزاد نقرسه ومحيط خصره ، «من ٩ فبراير إلى أول يوليو ١٧٩٠ عجزت عن التحرك من بيتي أو مقعدى» (١١٠) . وإلى هذه الحقبة تنتمي الأسطورة التي زعمت أنه جثا عند قدمي مدام كروزاز يبوح لها بحبه ، وأنها طلبت إليه أن ينهض ، وأنه لم يستطع لثقل جسمه (١١١) . والمصدر الوحيد للقصة هو مدام جفليس التي وصفها سانت - بوف بأنها «امرأة خبيثة اللسان» (١١٢) ؛ وقد رفضت ابنتها القصة وقالت أن سببها هو الخلط بين الأشخاص» (١١٣) .

ثم قطعت الثورة الفرنسية على جبون هدوئه . وترددت المشاعر الثورية في الأقاليم السويسرية ، وجاءت الأنباء بهياج مماثل في إنجلترا . وكان لجبون كل العذر في خوفه من أن تسقط الملكية الفرنسية ، لأنه كان يستثمر ١,٣٠٠ جنيه في قرض للحكومة الفرنسية (١١٤) . وكان قد كتب عام ١٧٨٨ ، في نبوءة لم يوفق فيها ، أن الملكية الفرنسية «تقف ، كما يبدو ، على أساس من صخر الزمن ، والقوة ، والرأى ، تساندها أرستقراطية ثلاثية من الكنيسة والنبلاء والبرلمانات» (١١٥) ، وقد اغتبط حين أصدر بيرك كتابه «تأملات في الثورة في فرنسا» (١٧٩٠) ، وكتب إلى اللورد شفياد محذراً من أى اصلاح في النظام السياسى البريطانى ، «لو سمحتم بأدنى تغيير وأكثره تمويهاً في نظامنا البرلمانى لقضى عليكم» (١١٦) . وراح الآن

يتحسر على نجاح جماعة الفلاسفة في حربهم التي شنوها على الدين ، « لقد خطر لي أحياناً أن أكتب حواراً بين الموتى ، يتبادل فيه لوسيان وارزم وفولتير الاعتراف بنظر تعريض خرافة قديمة لاحتقار الجماهير العمياء المتعصبة » (١١٧) . وحث بعض زعماء البرتغاليين على ألا يتخلوا عن ديوان التفتيش خلال هذه الأزمة التي هددت كل العروش (١١٨) .

ورحل جبون عن لوزان (٩ مايو ١٧٩٣) وأسرع بالعودة إلى إنجلترا ، من جهة هرباً من جيش الثورة الفرنسي المقرب من لوزان ، ومن جهة أخرى التماساً للجراحة الانجليزية ، ولسبب قريب هو تعزية اللورد شفيلد في وفاة زوجته ، فوجد شفيلد في شغل بالسياسة عجل بسلواه . كتب جبون يقول « شفى المريض قبل وصول الطبيب » (١١٩) . وأذعن المؤرخ نفسه الآن لأوامر الأطباء ، لأن قبيلته كانت قد بلغت من التضخم « حجم طفل صغير تقريباً . . . إننى أزحف زحفاً بشيء من الجهد وكثير من عدم اللياقة » (١٢٠) وقد صرفت إحدى الجراحات جالوناً من « السائل المائي الشفاف » من الحصية المريضة . ولكن السائل تجمع ثانية ، وأخرج بزل ثان ثلاثة أرباع الجالون ، واستشعر جبون الراحة مؤقتاً ، واستأنف الخروج للعشاء . ولكن القبيلة تكونت من جديد ، وباتت الآن عفنه . وفي ١٣ يناير بزلت للمرة الثالثة . وبدا أن جبون يتماثل للشفاء سريعاً ، وسمح له الطبيب بأكل اللحم ، وأكل جبون بعض الدجاج وشرب ثلاث أكواب من النبيذ . فأصابته آلام معوية شديدة حاول كما حاول فولتير تخفيفها بتعاطي الأفيون . ولكن في ١٦ يناير مات بالغاً السادسة والخمسين .

د - المؤرخ

لم يكن جبون ملهماً في مرآه ولا في خلقه ولا في سيرته ، فعظمته كلها انسكبت في كتابه ، في فخامة فكرته وشجاعته ، في الصير على تأليفه والتفنن فيه ، وفي الجلال الوضوء الذي كمله كله .

أجل ، لقد صدق شريدان فيما قال . فأساوب جبون وهما بالقدر الذي يسمح به التهكم ، وقد ألقى الضوء أينا اتجه ، اللهم إلا حين يحجب الهوى

الهوى رؤيته . وقد شككت أسلوبه دراساته اللاتينية والفرنسية ، فرأى الألفاظ الأنجلو - سكسونية البسيطة لاتناسب وقار مذهبه في الكتابة . ، وكثيراً ما كتب كأنه خطيب يخطب ، وما أشبهه في هذا بليني يشحذه هجاء تاسيتوس ، وببيرك تجلوه فكاهة بسكال الذكية . كان يوازن بين جملة بمهارة المشعوذ وجداله ، ولكنه أسرف في تكرار لعبته هذه حتى قاربت الرتبة المملة أحياناً . وإذا كان أسلوبه يبدو فخماً طناناً ، فإنه الأسلوب اللائق بترامى موضوعه وبهائه - وهو تفتت أعظم امبراطورية شهدها العالم على مدى ألف عام . وما أخذ أسلوبه العرضية تتوه وسط زحف الرواية وقوة الأحداث ، والصور والأوصاف الكاشفة ، والتلخيصات الباتة التي تجمل قرناً بأسره في فقره ، وتزواج بين الفلسفة والتاريخ .

ولقد شعر جبون بعد أن اضطلع بهذا المبحث المترامى أن له الحق في تضيق حدوده ويقول « إن الحروب ، وإدارة الأمور العامة ، هما موضوعا التاريخ الرئيسيان » (١٢١) ، ومن ثم أغفل تاريخ الفن والعلم والأدب ، فلم يكن لديه ما يقوله عن الكتدرائيات القوطية أو المساجد الإسلامية ، ولا عن العلم أو الفلسفة العربيين ، وقد توج بترارك ، ولكنه مر بدانتى مرور الكرام . ولم يكذب يلقى بالا إلى حال الطبقات الدنيا ، أو قيام الصناعة في القسطنطينية أو فلورنسه في العصر الوسيط . وفقد اهتمامه بالتاريخ البيزنطي التالي لموت هرقل (٦٤١) . وفي رأى بيورى « أن جبون أخفق في إبراز حقيقة خطيرة ، هي أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت حتى القرن الثاني عشر حصن أوروبا الحصين في وجه الشرق ، كذلك لم يقدر أهميتها في الحفاظ على تراث المدينة الإغريقية » (١٢٢) ، غير أن جبون في نطاق الحدود التي رسمها لنفسه بلغ العظمة بربطه النتاج بالأسباب الطبيعية ، وبتهويله ضخامة مواده إلى ترتيب مفهوم ورؤية هادية للصورة بأكملها .

لقد كان علمه واسعاً كثير التفاصيل . فحواشيه ذخيرة من المعرفة تلتفها الفكاهة الذكية ، وقد درس أعوص جوانب العالم القديم ، بما فيه من طرق وعمليات وموازين ومقاييس وقوانين ، ووقع في أخطاء صححها

المتخصصون ، ولكن بيورى هذا الذى بين مآخذه أضاف : « لو أخذنا فى الاعتبار المدى الشاسع لمؤلفه لأدهشتنا دقته » (١٢٣) ولم يستطع أن ينقب فى المصادر الأصلية غير المنشورة (كما يفعل محترفو المؤرخين ممن يقتصرون على رقعة صغيرة من الموضوع والزمان والمكان) ، واكفى يتم عماله اقتصر على المادة المطبوعة ، واعتمد بصراحة على مراجع ثانوية مثل كتاب أوكلى « تاريخ المسلمين » أو كتابي تلمون « تاريخ الأباطرة » و « التاريخ الكنسى » ؛ وبعض المراجع التى اعتمد عليها مرفوضة الآن لأنها غير موثوق بها (١٢٤) . وقد أفصح عن مصادره فى تفصيل أمين وشكر مؤلفيها ؛ من ذلك أنه قال فى هامش حين جاوز الفترة التى تناوّلها تلمون : « هنا على أن أستأذن إلى الأبد من ذلك المرشد الذى لا يبارى » (١٢٥) .

ترى ما النتائج التى نخلص إليها جبون من دراسته للتاريخ؟ إنا نراه أحياناً يتبع جماعة الفلاسفة الفرنسيين فى قبول حقيقة التقدم : « يجوز لنا أن نرتضى النتيجة السارة التى تذهب إلى أن كل عصر فى العالم زاد وما زال يزيد من ثروة النوع الإنسانى الحقيقية ، وسعادته ، ومعارفه ، وربما فضائله » (١٢٦) ، ولكنه فى لحظات أقل اشراقاً - وربما لأنه قد اتخذ الحرب والسياسة (واللاهوت) مادة للتاريخ - حكم على التاريخ بأنه « فى الحق لا يعدو كثيراً أن يكون سجلاً لجرائم الإنسان وحقايقه ونكباته » (١٢٧) ولم ير فى التاريخ قصداً مرسوماً ؛ فالأحداث ثمرة أسباب لا موجه لها ، فهى متوازى أضلاع من قوى ذات أصل مختلف ونتيجة مركبة . وفى كل هذه المشاكل من الأحداث يبدو أن الطبيعة البشرية تظل دون تغيير . ولقد ابتلى النوع الإنسانى دائماً وسيظل دائماً مبتلى ، بالقسوة والمعاناة والظلم ، لأنها هذه كلها مركبة فى طبيعة البشر ، ان الإنسان خارق بأن يخشى من ثورات إخوانه من البشر أكثر كثيراً مما يخشى اضطرابات الطبيعة العنيفة (١٢٩) .

(*) هارن فولتير « كل التاريخ ، باختصار ؛ ليس إلا . . . مجموعة جرائم وحقايق ونكبات . . . » (١٢٨) .

لقد تاقت نفس جبون وهو ريب التنوير إلى أن يكون فيلسوفاً ، أو على الأقل أن يفلسف التاريخ ، « ان العصر المستنير يطالب المؤرخ بمسحة من الفلسفة والنقد » (١٣٠) . وكان يجب أن يقطع روايته بتعليقات فلسفية . ولكنه لم يزعم أنه يرد التاريخ إلى قوانين أو يصيغ « فلسفة للتاريخ » ، على أنه اتخذ له موقفاً في بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى اتخذ له موقفاً في بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى من المدنية ، ورفض أن يكون العرق عاملاً حاسماً (١٣١) ؛ وأقر ، في حدود بتأثير الأفاذ من الرجال . « أن أهم المشاهد في الحياة البشرية تتوقف على أخلاق ممثل فرد . فقد يحدث عرق في رجل واحد فيغير مصير أمم » (١٣٢) . وحين كان في استطاعة قريش أن تغتال محمداً (صلى الله عليه وسلم) « كان من الجائز أن يغير رمح عربي تاريخ العالم » (١٣٣) . ولو لم يهزم شارل مارتل المغاربة في تور (٧٣٢) لاكتسح المسلمون أوروبا بأسرها ، « وكان تفسير القرآن يدرس الآن في مدارس أكسفورد ، وكان تلاميذها يفسرون لشعب من المختونين قدسية الوحي الذي نزل على النبي وصدقه » (١٣٤) . على أنه لا بد للفرد الفذ من أن يرتكز على سند واسع إن أراد أن يحرز أقصى نفوذ على عصره . « إن النتائج التي يحققها الإقدام الشخصي ضئيلة جداً ، إلا في الشعر أو الرومانس ، بحيث يجب أن . . . يعتمد النصر على درجة المهارة التي يستعان بها لتجميع عواطف الجماهير المشبوبة وتوجيهها لخدمة رجل فرد » (١٣٥) .

صفوة القول أن « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » يمكن على الجملة أن يعد الكتاب الأعظم للقرن الثامن عشر ، وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » أقرب منافس له . صحيح أنه لم يكن أكثر الكتب تأثيراً ، ولم يكن يكن في تأثيره على التاريخ قريباً لكتاب روسو « العقد الاجتماعي » أو لكتاب آدم سميث « ثروة الأمم » ، أو لكتاب كانط « نقد العقل الخالص » . ولكننا إذا نظرنا إليه بوصفه أثراً أدبياً وجدناه لا يبارى في جيله أو نوعه . فإذا سألنا كيف أتيج لجبون أن ينتج هذه الرائعة أدركنا أن السر كان في

ذلك الارتباط الذي تصادف أن ربط بين الطموح والمال والفراغ والكفاية ؛ ولا ندري متى يمكن أن نتوقع تكرار هذا الارتباط ثانية . لقد قال مؤرخ آخر لروما هو بارتولد نيبور « أن كتاب جبون لن يزه كتاب أبدا » (١٣٦) .

- ٦ - تشاترتن وكوبر

من يظن الآن أن أحب الشعراء الانجليز الأحياء إلى قلوب الناس في عام ١٧٦٠ هو تشارلز تشرشل ؟ كان ابنا لقسيس ، وقد رسم هو نفسه قسيساً أنجليكانياً ، غير أنه هوى مباحج لندن ، وصرف زوجته ، وغرق في الديون ، ونظم قصيدة حظيت بالشهرة يوماً ما ، هي « الروسكياده » (١٧٦١) وأتاحت له الوفاء بديونه ، وتقرير معاش لزوجته ، و « أن يطلع على الناس في زى لاديني على نحو صارخ كفتى من فتيان لندن العصريين » (١٣٧) . وقد اتخذ قصيدته اسمها من كوينتس روسكيوس الذي سيطر على المسرح الروماني أيام يوليوس قيصر ؛ وهجت القصيدة كبار ممثلي لندن ، وجعلت جارريك يهمل ؛ وذكر عن أحد ضحاياها أنه « كان يجرى في شوارع المدينة كأنه ظبي جريح » (١٣٨) . وقد انضم تشرشل إلى ولكس في شعائر « مدمنهام آبي » الفاجرة ، وأعانه على تحرير صحيفة « النورث بريتون » ، وذهب إلى فرنسا ليقاسم ولكس منفاه ، ولكنه مات في بولون (١٧٦٤) إثر سكرة فاجرة ، و « لامبالاة أبيقورية » (١٣٩) .

وهناك قسيس آخر يدعى توماس بيرسي عاش حياة تليق بردائه الكهنوتي ، وأصبح أسقفاً على درومور في أيرلنده ، وترك بصمته على الأدب الأوربي حيي استنتمد مخطوطاً قديماً من يد خادم كانت على وشك احراقه ، وقد أمده المخطوط بأحد المصادر لكتابه « آثار من الشعر القديم » (١٧٦٥) وراقت هذه القصائد القصصية الشعبية التي تنتمي لبريطانيا في العصر الوسيط المخضرمين من القراء ، وشجعت الروح الرومانتيكية - التي طالما كبتها النزعة العقلية والمزاج الكلاسيكي - على الأعراب عن نفسها شعراً وقصصاً وفناً . وقد أرخ ورد زورث من هذه الآثار ظهور الحركة الرومانتيكية في الأدب الانجليزي . وكانت أشعار مكفرسن « أوسيان » ،

وقصائد تشاترتن ، وقصائد ولبول « قلعة أوترنتو » و « ستروبرى هل » ،
وقصيدة بكفورد « فاذك » و « فونتل آنى » - هذه كلها كانت أصواتاً
شتى فى صيحة تدعو للوجدان والغموض والرومانس ، وتملكت العصور
الوسطى الروح العصرية برهة .

وقد بدأ توماس تشاترتن محاولته لتشرب العصر الوسيط بإطالة النظر
فى رفاق عتيقة عثر عليها عمه فى كنيسة بيرستل . وقد شب هذا الغلام
الحساس الحصب الخيال - الذى ولد ببرستل (١٧٥٢) عقب موت أبيه -
فى عالم من صنع خيالاته التاريخية . وقد درس قاموساً للألفاظ الأنجلو -
سكسونية ، ونظم فى لغة خالها لغة القرن الخامس عشر قصائد ادعى أنه
عثر عليها فى كنيسة سانت مارى راد كليف ، ونسبها إلى توماس راولى ،
وهو راهب وهمى من رهبان القرن الخامس عشر . وفى ١٧٦٩ ، حين بد
السابعة عشرة ، أرسل بعض « قصائد راولى » هذه إلى هوراس ولبول -
الذى كان هو ذاته قد نشر « أوترانتو » زاعماً أنها من شعر العصر الوسيط
الأصيل قبل ذلك بخمس سنوات . وأطرى ولبول القصائد ودعا لإرسال
المزيد منها ، فأرسل تشاترتن المزيد ، وطلب العون على إيجاد ناشر ينشرها ،
ووظيفة مجزية فى لندن . وعرض ولبول القصائد على توماس جراى ،
ووليم ميسن ، فحكّم كلاهما عليها بأنها مزيفة . وكتب ولبول إلى تشاترتن
أن هذين الأدبيين « غير مقتنعين إطلاقاً بصحة مخطوطه المزعوم » ونصححه
بأن يطرح الشعر جانباً حتى يستطيع كسب قوته . ثم رحل ولبول إلى باريس
ونسى أى يرد القصائد لصاحبها . وكتب تشاترتن فى طلبها ثلاث مرات ،
وانقضت ثلاثة أشهر قبل أن تصالها (١٤١) .

وذهب الشاعر إلى لندن (ابريل ١٧٧٠) وسكن عليه فى شارع بروك
هوبورن . وأرسل إلى دوريات شتى مقالات منمحازة لواكس ، وبعض
قصائد راولى ، ولكن حصيلة الأجر الذى تلقاه عنها (ثمانية عشر بنساً
للقصيدة) كانت أقل من أن تقيم أوده ، فحاول الحصول على وظيفة
مساعد جراح على باخرة تجارية أفريقية ولكنه أخفق - وفى ٢٧ أغسطس
نظم وداعاً مرأ للعالم :

وداعاً يا أكوام الآجر القذرة في برستوليا ،
يا عشاق المال ، وعباد الخديعة والختل !
لقد ازد ريم الفتي الذي أعطاكم الأغاني القديمة ،
وأثبتم المعرفة بالمديح الفارغ .
وداعاً أيها الحمقى من الرؤساء السكارى ،
الذين هياتكم الطبيعة مطية للفساد !
وداعاً أمى ! وكفى أنت يا روى المضناة ،
ولا تدعى أمواج الحيرة والدهول تطفى على !
رحمك أيتها السماء إن أنا كفتت عن العيش هنا ،
واغفري لى هذه الفعلة الأخرية من أفعال الشقاء .

ثم انتحر بشرب الزرنيخ بالغاً من العمر سبعة عشر عاماً وتسعة أشهر .
ودفن في قبر من قبور الفقراء المعدمين .

وقصائده تملأ اليوم مجلدين . ولو كان قد وصفها بأنها تقليد لا أصل
فلربما اعترف له بأنه شاعر أصيل ، لأن بعض قصائده راوى لا تقل جودة
عن معظم القصائد الأصاية من هذا النوع ذاته . وكان حين يكتب شعراً
باسمه يستطيع نظم شعر هجائي يكاد يضارع شعر بوب ، كما نرى في
قصيدته « المثودى » (١٤١) ، أو في سبعة عشر بيتاً — هي أهجى شعره كله —
يسوط فيها ولبول متملقاً ذليلاً غليظ القلب (١٤٢) . فإما أن نشرت مخطوطاته
المتخلفة (١٧٧٧) اتهم المشرف على نشرها ولبول بأن عليه تقع بعض
التبعة في موت الشاعر ، ودافع ولبول عن نفسه بأنه لم يشعر بأى التزام
بمساعدة مزيف مصر على التزييف (١٤٣) . وأصر بعض ذوى القلوب
الرحيمة كجولد سمث على أن القصائد أصيلة لا مزيفة ، وضحك جونسن
من صديقه ، ولكنه قال : « هذا أعجب شاب عرفته . غريب كيف كتب
الجرو كلاماً كهذا » (١٤٤) . أما شلى فقد نخلد ذكرى الفتي تخليداً موجزاً
في قصيدته « أدونيس » (١٤٥) ، وأما كيتس فقد نظم قصيدته « انديميون »
في ذكراه .

لقد هرب تشاترتن من واقع برستل ولندن والكثيب عن طريق أساطير العصر الوسيط والزرنيخ . أما وليم كوبر فقد هرب من لندن التي عشقها جونسن إلى البساطة الريفية ، والإيمان الديني ، والجنون الدوري . وقد رى جده من تهمة القتل وأصبح قاضياً ، وكان أبوه قسيساً انجليكانياً . وأمه تنتسب إلى الأسرة التي أنجبت جون دن . وقد ماتت وهو في السادسة ، مخلفة له ذكريات حزينة لحدبها وحبها ، وحين أرسل له ابن عم له بعد ثلاثة وخمسين عاماً صورة قديمة لأمه استعاد في قصيدة رقيقة^(١٤٦) تلك الجهود التي كثيراً ما بذلتها لتهدىء المخاوف التي أظلمت ليالي طفولته .

وقد انتقل من هاتين اليدين الرقيقتين في عامه السابع إلى مدرسة داخلية أصبح فيها المسخر الجبان لطالب متمرأ رهقه بكل ثقل مدل من الواجبات . وأصيب بالتهاب في عينيه ، فاضطر أن يظل أعواماً تحت رعاية رمدي . وفي ١٧٤١ ، حين بلغ العاشرة ، بعث إلى مدرسة وستمنستر في لندن . وبدأ في السابعة عشرة الاشتغال ثلاثة أعوام كاتباً في مكتب محام بهوبورن . واكتمل الآن نضجه للرومانس ، وكانت ابنة عمه تيودورا كوبر تعيش بقربه ، فعدت معبودة أحلام يقظته . وحين بلغ الحادية والعشرين اتخذ له مسكناً في « المدل تمبل » ، وفي الثالثة والعشرين سمح له بالاشتغال بالمحاماة . وإذا كان كارهاً للقانون ، شديد الاحجام أمام المحاكم ، فقد ابتلى بحالة من الوهم المرضي ، ازدادت عمقاً حين نهى تيودورا أبوها عن أي اتصال بابن عمها . ولم يرها كوبر بعدها قط ، ولم ينسها قط ، ولم يتزوج قط .

وفي ١٧٦٣ ، حين واجه ضرورة المشول أمام مجلس العموم ، انهارت أعصابه ، واختلط عقله ، وحاول الانتحار . وأرسله بعض أصحابه إلى مستشفى للأمراض العقلية في سانت أولبنز . وأفرج عنه بعد ثمانية عشر شهراً ، وإثر العيش في هنتنجدن قرب كبردج معزلاً الناس تقريباً . وقال إنه الآن « لا يرغب في أي صحبة إلا صحبة الله والمسيح »^(١٤٧) . وقد قبل العقيدة الكلفينية بخداها ، وأطال التفكير في الخلاص والهلاك الأبدي . وألقت به الصدف السعيدة بين يدي أسرة محلية كان إيمانها مجلبة للسلام والرحمة لا للخوف ، وأفرادها هم القس مورلي أنوين ، وزوجته ماري ،

وابنه وليم ، وابنته سوزانا . وقد شبه كوبر أب هذه الأسرة بالقس أدمز في قصة فيلدنج « جوزف أندروز » ، ووجد أما ثانياً له في السيدة أنوين التي كانت تكبره بسبع سنين ، وقد عاملته هي وابنتها معاملة الإبن والأخ ، وأصبغنا عليه من عطف المرأة الرقيق ما كاد يجيب إليه الحياة من جديد . ودعته الأسرة للعيش معها ، ففعل (١٧٦٥) ووجد الشفاء في حياتها البسيطة .

ولكن هذا النعم زال فجأة حين قتل الأب إثر سقوطه من فوق جواده . وانتقلت الأرملة والإبنة إلى أولني في بكنجها مشير واصططحبتا معهما كوبر ، ليكونوا كلهم قريبين من الواعظ الإنجيلي الشهير جون نيوتن . وقد أقنع كوبر أن ينضم إليه في افتقاد المرضى وتأليف الترانيم . واحتوت إحدى « ترانيم أولني » هذه أبياتاً مشهورة :

إن الله يتحرك بطريقة خفية

ليصنع عجائبه ،

انه يزرع نخطاه في البحر

ويركب فوق العاصفة (١٤٨) .

على أن مواعظ نيوتن المنذرة بنار الجحيم ، والتي « هزت توازن الكثيرين من أعضاء كنيسة » لم تهديء من مخاوف الشاعر اللاهوتية بل زادت حدة (١٤٩) . يقول كوبر « إن الله يبدو لي دائماً رهيباً إلا حين أراه تعالى وقد تجرد من شوكته لأنه أغمدها في جسد المسيح » (١٥٠) وعرض الزواج على السيدة أنوين ، ولكن نوبة ثانية من نوبات الجنون (١٧٧٣) حالت دون زواجهما ، ثم تماثل للشفاء بعد ثلاث سنين من العناية المشرفة بالحببة . وفي ١٧٧٩ رحل نيوتن عن أولني ، واتخذت تقوى كوبر مظهراً أكثر اعتدالاً .

وأعانت نساء أخريات ماري أنوين على إبقاء الشاعر على صالة بالأرضيات . فتركت الليدي أوستن ، الأرملة المرححة ، بيتها اللندني وقصدت أولني ، واتصلت بآل أنوين ، وجلبت المرح والحبور إلى بيت طال تركيزه على المآسى العارضة للحياة . وهذه السيدة هي التي روت لكوبر القصة التي

أحاطها إلى « تاريخ جون جلين المسلمي » (١٥١) ، ورحلته الوعرة التي أكره عليها ، وأرسل صديق الأسرة هذه القصيدة الشعرية المرحة لأحدى الصحف ، وألقاها ممثل كان قد خاف جاريلك على مسرح دروري لين هناك ؛ فغدت حديث لندن السائر ، وذاق كوبر طعم الشهرة لأول مرة . ولم يكن قد أخذ شاعريته من قبل مأخذ الجد ، ولكن الليدي أوستن حثته الآن على أن ينظم شعراً ذا قيمة . ولكن في أي موضوع ينظمه ؟ أجابت في أي شيء ، وأشارت إلى أريكة ، ثم فرضت عليه واجب إذاعة شهرتها في شعره . وقد سره أن تأمره امرأة فاتنة ، فنظم قصيدة « الواجب » . وحين نشرت القصيدة عام ١٧٨٥ استقبلها الناس بالترحيب بعد أن ملوا الحرب والسياسة وصراع المدينة .

وكتابة أو قراءة ستة « كتب » عن أريكه واجب ثقيل حقاً ما لم يؤت المرء خلق « كريبيون » الإبن (١٥٢) ؛ ولكن كوبر كان لديه من الفطنة ما يكفي لاستخدامها نقطة انطلاق لا أكثر . فبعد أن جعل منها القمة في قصة فكهة عن المقاعد ، تسأل إلى موضوعه المفضل الذي يمكن اجماله في بيت القصيد الذي يقول « لقد صنع الله الريف ، أما الإنسان فصنع المدينة » (١٥٣) . وقد اعترف الشاعر بأن الفن والبلاغة مزدهران في لندن ، وأثنى على رينولدز وشاتام ، وتعجب من العلم الذي « يقيس الدررة ويطوق العالم الآن » (١٥٤) . ولكنه وبخ « ملكة المدائن على عقابها بالموت بعض السرقات التافهة ، على حين تغدق أسباب التشريف على « مختلسي المال العام » . يقول :

من لي بكوخ في برية شاسعة

يكتنفه ظل مترام لا حدود له ،

حيث لا تفرع سمعى بعدها

أنباء الظلم والحداع ،

ولا أنخبار الحرب الخاسرة أو الظافرة ،

إن أذنى لتأذى ، ونفسي لتشمئز ،

بما يأتي به كل يوم من أنباء

العدوان والمظالم التي تمتليء بها الأرض (١٥٥) .
وقد روعه الاتجار بالرقيق ، وكان صوته أحد الأصوات الانجليزية
الأولى التي نددت بالرجل الذي :

يرى أخاه مذنباً بجريرة جلد
لونه غير لون جلده ؛ وإذ كان له
من القوة ما يمكنه من إنقاذ الباطل . .
فهو يدينه ويتملكه فريسة حلالا . . .
فما الإنسان إذن ؟ وأي إنسان له مشاعر البشر
يرى هذا ولا يحمر وجهه خجلاً ،

ولا ينكس رأسه خزيًا من مجرد الفكرة بأنه إنسان ؟ (١٥٦)
ومع ذلك يختم بهذه العبارة « انى مازلت أحبك رغم كل أخطائك
يا انجلتره » (١٥٧) .

وقد أحس أن هذه الاخطاء تخف ان ثابت انجلتره إلى الدين وحبابة
الريف . « كنت ظيباً جريحاً ترك القطيع » أى أنه ترك لندن حيث « تدفعنا
العاهرات بالمرافق » ، ووجد شفاءه فى الأيمان والطبيعة . تعال إلى الريف !
وتأمل نهر أوز « يحتوى مخترقاً سهلاً مستويًا » ، ثم هاتيك الماشية المطمئنة
وكوخ الفلاح وساكنية الأشداء ، وبرج القرية يرمز للحزن والرجاء !
واستمع إلى رشاش مساقط المياه، وزقزة الطيور فى الصباح . إن لكل فصل
أفراحه فى الريف ، فأمطار الربيع بركة ، وثلوج الشتاء نقية . وما أبهج
السير الثقيل وسط الثلوج ثم التجمع حول نار المدفأة فى المساء ! .

ولم يكتب كوبر شيئاً ذا بال بعد « الواجب » . وفى ١٧٨٦ انتقل ثانية إلى
وستن أندروود القريبة ، وهناك كابد نصف عام آخر من الجنون . وفى
١٧٩٢ أصيبت السيدة أنوين بالفالج ، وظلت ثلاث سنين عليلاً عاجزة ؛
فمرضها كوبر كما مرضته من قبل ، وفى آخر شهر فى حياتها كتب أبياته
التي عنوانها « إلى ماري أنوين » :

ان خصلك الفضية التي كانت يوماً ما حمراء مشرقة
مازالت فى ناظرى أحب إلى

من أشعة الصبح الذهبية
يا عزيزتى ماري! (١٥٨)

وفي ١٧٩٤ ، حين أثقلته الهموم ، وأرهقه جهده في ترجمة غير موفقة لهومر ، الثالث عقله مرة أخرى ، فحاول الانتحار : ثم شفى ، وأعفاه من عيشة الضنك معاش حكومي قدره ٣٠٠ جنيه . ولكن ماري أنوين ماتت في ١٧ ديسمبر ١٧٩٦ ، وشعر كوبر أنه ضائع مهجور رغم أنه وجد صديقة جديدة في أخت تيودورا ، وهي الليدى هاربيت كوبر هسكث . ولازمته المخاوف الدينية في أيامه الأخيرة ، ثم قضى نحبه في ٢٥ ابريل ١٨٠٠ بالغا الثامنة والستين .

وكان في عالم الأدب ينتمى إلى الحركة الرومانتيكية وفي عالم الدين إلى الحركة الإنجيلية . وقد اختتم عصر سيادة بوب على الشعر ومهد لوردزورث ، وأدخل في الشعر طبيعية في الشكل وصدقاً في المشاعر أوقف سيل الثنائيات المفتعلة الذي أطلقه « العصر الأوغسطيني » على انجلترا . وكان دينه لعنة عليه لأنه صور له إلهاً منتقماً وجحيماً لاغفران فيه ، ومع ذلك ففعل الدين هو الذي دفع أولئك النسوة الرحيمات ، كما دفعتهن غرائز . الأمومة ، إلى الحذب على هذا « الظبي الجريح » في كل أحزانه وأفكاره السوداء .

٧ - أولفر جولدميث

وكان لـ « بل المسكين » هو أيضاً مآسيه ، غير أنها لم تعمقها عقيدة سادية ، ونخفت منها انتصارات في النثر والشعر وعلى خشبة المسرح . كان أبوه خوريا انجليكانياً متواضعاً في قرية إرلندية ، يكسب أربعين جنيهاً في العام بإضافة الفلاحة إلى اللاهوت . فلما أن بلغ أولفر الثانية من عمره (١٧٣٠) رقى الخورى قسيساً لكيكيني وست ، وانتقلت الأسرة إلى بيت يقع على طريق رئيسي قرب ليسوى ، التي غيرت في تاريخ لاحق اسمها في ضمير الشاعر إلى « أوبرن » حين نظم قصيدته « القرية المهجورة » . والتحق جولدميث بالمدرسة الأولية تلو المدرسة ، وكان أنصع ذكريات أيامه المدرسية تلك ذكرى أمين امدادات سابق في الجيش تحول معلماً ، ولم يستطع قط أن ينسى حروبه ، ولكنه كان إلى ذلك يروى لتلاميذه القصص الساحرة عن الجان وأرواح المنذرات بالموت والنفاريت . وحين بلغ

الصبي التاسعة أشرف على الموت من الجدري ، وزاد هذا المرض على ذلك تشويهاً ابتلى به وجهه من أقل الوجوه حظاً من الوسامة وهب لروح لطيفة محبة . وفي الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتي في دبان طالباً معاناً ، يريدى ثوباً يميزه ، ويؤدي خدمات حقيرة ، ويلحقه معلم مستبد بمضايقاته . فهرب إلى كورك ، مزعماً أن يحاول الرحلة إلى أمريكا ، غير أن أخاه الأكبر منه « هنري » أدركه ولاطفه فاقنعه بالعودة إلى الكلية . وتفوق أولفر في الدراسات الكلاسيكية ، غير أن دراسة العلوم استعصت عليه ، ولكنه على أي حال أفلح في نيل درجة البكالوريوس .

ثم تقدم بطلب لوظيفة كنسية صغيرة ، ولكنه أدهش الأسقف بما ارتداه من سراويل قرمزية واشتغل معلماً خاصاً بعد أن رفض طلبه ، وتشاجر مع تلميذه ، ويم ثانياً شطر كورك وأمريكا . فتدخل في الأمر عم له أقرضه خمسين جنياً ليذهب إلى لندن ، وخسر أولفر المبلغ كله في بيت للقمار . وقد أفرغ أقرباءه لما لحظوا فيه من عمجز وقلّة حيلة ، ولكن صرحهم مرحة ونايه وأغانيه . وجمع له بعض المال للإنفاق على دراسته الطب في إدنبره ثم في ليدن . وقد حقق بعض التقدم ، ويقص علينا أنه كان في باريس يختلف إلى محاضرات روييل في الكيمياء . ثم انطلق على مهل (١٧٥٥) يتجول في أنحاء فرنسا ، وألمانيا ، وسويسره ، وشمالى إيطاليا ، يعزف على نايه في المراقص الريفية ، ويظفر بوجبات طعام كيفما اتفق له ، ويتلقى الصدقات على أبواب الأديرة (١٥٩) . ثم عاد إلى إنجلترا في يناير ١٧٥٦ ومارس الطب في لندن ، وصحح تجارب الطبع لص. ووثيل رتشر دسن ، واشتغل معلماً بمدرسة في صرى ، ثم استقر في لندن كاتباً وأجوراً يقوم بأشتات من الأعمال الأدبية غير المنتظمة ويكتب المقالات للمجلات . وقد كتب في أربعة أسابيع « حياة فولتير » . وفي ١٧٥٩ أقنع ددسلى بأن ينشر كتاباً سيطلق عليه اسم « تحقيق في أحوال الثقافة الراقية في أوربا » . وقد أساءت تعليقات التحقيق حول مديرى المسارح إلى جارياك إساعة لم ينسها قط . وزعم هذا التحقيق أن عصور الأدب الخلاق تنحى إلى أن تتلوها عصور نقد ، وتستتبط قواعد من أعمال المبدعين ، وتنزع إلى تقييد أسلوب الشعراء الجدد وتعويق خيالهم . وقد رأى جولدميث أن أوربا كانت تمر بهذه الحال في ١٧٥٩ .

وبعد عام كتب لصحيفة نيويورك « بيلك لدجر » بعض « الرسائل الصينية » التي أعيد نشرها في ١٧٦٢ بعنوان « مواطن العالم » . أما نخطها فقديم : فهي تصور رحالة شرقياً يروي أساليب عيش الأوربيين في ضحك وشمزاز شديد ، فرى « لاین تشى ألتانجى » يصف فى رسائله إلى صديق له فى وطنه ، أوربا مسرحاً فوضوياً للجشع والطمع والفساد . وقد نشر جولدميث الكتاب غفلاً من اسمه ، غير أن أهل فليت ستريت (شارع الصحافة) تدينوا أسلوبه فى اللغة البسيطة ، والأوصاف النابضة بالحياة ، والنبرة اللطيفة المحببة ، فلما أحس بشهرته انتقل إلى مسكن أفضل فى رقم ٦ بشارع واين أوفس كورت . وكان قد أطرى جونسن فى « الرسائل الصينية » فجرؤ الآن على دعوة واضح المعجم إلى العشاء (وكان يسكن على جانب الطريق المقابل) . وحضر جونسن ، وبدأت من يومها صداقتهما المديدة (٣١ مايو ١٧٦١) .

وحدث فى يوم من أيام أكتوبر ١٧٦٢ أن تلقى جونسن رسالة عاجلة من جولدميث يطلب فيها العون . فأرسل إليه جنياً ، وحضر بعد قليل ، فوجد أن جولدميث يوشك أن يقبض عليه لعدم دفعه أجره مسكنه : وسأل جونسن صديقه إن كان لديه شيء ذو قيمة يرهنه أو يبيعه . فأعطاه جولدميث مخطوطاً عنوانه « قسيس ويكفيلد » ، ويقول جونسن (١٦١) . إنه طلب إلى صاحبة الدار أن تنتظر ، وقدم القصة إلى الكتيبي جون نيوبرى ، وباعها له بستين جنياً . ثم دفع بالنقود إلى جولدميث ، فسدد هذا الإيجار واحتفل بهذه المناسبة بزجاجة من النبيذ . واحتفظ الكتيبي بالمخطوط أربع سنين دون أن ينشره .

وفى ديسمبر ١٧٦٤ طلع جولدميث بأول قصائده الكبرى « الرحالة أو إطلالة على المجتمع » وقد استعاد فيها جولاته فى القارة ، ووصف ما فى كل قطر من نقائص وفضائل ، ولاحظ أن كل بلد يحب نفسه خير بلاد الله . وفاخر بقوة انجلترا (التى كانت لتوها قد انتصرت فى حرب السنين السبع) . ووصف أعضاء البرلمان بهذين البيتين :

انى أشهد سادة الجنس البشرى يمرون
وفى مشيتهم شموخ ، وفى عيونهم تحد ؛

ولكنه أندر بأن الجشع يلوث الحكم البريطاني ، وأن الحظائر المسيحية ، المنبثة بأنانية الأغنياء ، تفقر طبقة الفلاحين وتدفع أبناء انجلترا الشداد للهجرة إلى أمريكا ، وكان قد أطلع جونسن على المخطوط ، فأضاف أبياتاً ستة معظمها قرب الخاتمة ، استخف فيها بتأثير السياسة على سعادة الفرد ، وأطرى المباهج البيتية البسيطة .

وقد أدهش نجاح القصيدة جميع الناس عدا جونسن الذي أعانها بتقريظ أذاعه وقال فيه « انه لم ننشر قط قصيدة بهذا الجمال منذ أيام بوب » (١٦١) وهو قول تجاهل الشاعر جراي . وجنى الناشر ربحاً طيباً من الطبقات المعادة ، ولكنه لم ينقد الشاعر غير عشرين جنياً . وانتقل جولدسميث إلى مسكن أفضل في « التبل » ، واشترى ثياباً جديدة ظهر فيها بسر اويل أرجوانية ، ومعطف قرمزي ، وشعر مستعار ، وعصا ، ثم استأنف في مظهره الوقور هذا مهنة التطيب . غير أن التجربة لم يحالفها التوفيق ، ثم رده نجاح « قسيس ويكفيلد » إلى حظيرة الأدب ثانية .

ذلك أن الكتي الذي كان قد اشترى المخطوط من جونسن أحس أن شهرة جولدسميث الجديدة ستكون معواناً على تقبل القراء لهذه القصة الغريبة . وقد صدرت في طبعة صغيرة في ٢٧ مارس ١٧٦٦ ، فبيعت الطبعة في شهرين ، وبيعت طبعة ثانية في ثلاثة أشهر أخرى ، ولكن المبيع من القصة لم يغط نفقات الناشر إلا عام ١٧٧٤ . وفي تاريخ مبكر (١٧٧٠) زكاها هر درلجوت ، الذي رأى فيها « قصة من أفضل ما كتى من قصص إلى الآن » (١٦٢) . وأمن ولتر سكوت على هذا الرأي (١٦٣) . أما واشنطن إيرفينج فقد تعجب من أن عزبا حرم الحياة الأسرية منذ طفولته استطاع أن يرسم « أطف وأحب صورة للفضيلة الأسرية وكل ما يحب الناس في الحياة الزوجية » (١٦٤) . ولعل حرمان جولدسميث من الحياة الأسرية هو الذي حداه إلى أن يرضى على البيت هذه الصفات المثالية ، ولعل حياة العزوبة التي كان يحياها على مضض هي التي جعلته يتساهى بصفات الشباب من النساء ، ولعل غرامياته المجهولة هي التي دفعته إلى الإعلاء من قدر عفة المرأة لأنها أئمن من الحياة . وقد أمدته ذكرياته الحبيبة عن أبيه وأخيه

بصورة الدكتور برمرور ، الذى كان بوصفه « قسيساً ، ومزارعاً ، ورب أسرة . . . يجمع فى ذاته أعظم ثلاث شخصيات على هذه الأرض » (١٦٥) . وقد عادت جولاته هو تظهر فى شخص الإبن جورج ، الذى ختم رحلاته كما ختم جولدميث نفسه كاتباً مأجوراً فى لندن . ان القصة بعيدة التصديق ، ولكنها ساحرة .

وسرعان ما نفذت حصيلة « الرحالة » و « قسيس ويكفياند » ، ولاغرو فقد كان جولدميث متلاًفاً لا يستقر المال فى يده لحظة ، يعيش دائماً فى المستقبل . وقد تطالع بعين الحسد إلى الشهرة والمال اللذين قد تأتى بهما مسرحية ناجحة فرصد قلمه لاقتحام هذا الميدان العسير من ميادين الأدب ، وسمى ثمرة جهده « الرجل الطيب » وعرضه على جارليك . وحاول جارليك أن ينسى التعليقات المهينة التى كتبها جولدميث عنه من قبل ، ووافق على أن يخرج المسرحية . ولكنها كانت تسخر من الكوميديات العاطفية ، وهذه الكوميديات هى التى درت على جارليك الربح الوفير . فاقترح إدخال بعض التغييرات على المسرحية ، ولكن جولدميث رفضها . ونقد جارليك المؤلف مقدماً أربعين جنياً ، ولكنه تباطأ تباطؤاً شديداً حمل المؤلف المتهور على عرض المخطوط على منافس لجارليك هو جورج كولمان الذى كان يدير مسرح الكوفنت جاردن . وانتقص ممثلو كولمان من قدر المسرحية ، ولكن جونسن أيدها تأييداً قوياً ، وحضر بروقاتها ، وكتب المقدمة التى تلقى قبيل العرض . وعرضت أول مرة فى ٢٩ يناير ١٧٦٨ ، واستمر عرضها عشر ليال ، ثم سميت باعتبارها ناجحة نجاحاً متوسطاً ، ومع ذلك بلغ صافى ما حصله المؤلف منها ٥٠٠ جنيه .

فلما أن جرى المال فى يد جولدميث عاماً انتقل إلى شقة جميلة فى بريك كورت مخالفاً نصيحة جونسن ، وأثنا تأثيثاً ممتازاً اضطره إلى العودة للكتابة المأجورة ليغضى نفقاته . وأخرج الآن كتباً شعبية فى التاريخ - تاريخ روما ، واليونان ، وإنجلترا . و « تاريخاً للطبيعة الحية » - وكلها فقير فى الدرس أثراه النثر الرشيق . وحين سأله بعضهم لم كتب كتباً كهذه أجاب

بأنها أعانته على قوته ، بينما أفضى به الشعر إلى التضور جوعاً . ومع ذلك
ففي ٢٦ مايو ١٧٧٠ طلع علي القراء برأئعته « القرية المهجورة » التي نقد
عنها مائة جنيهه - وهو ثمن طيب في ذلك العهد لقصيدة لا تتجاوز سبع عشرة
صفحة طولاً . وقد نفذت منها أربع طبعات في ثلاثة أشهر .

أما موضوعها فهجر الزراع للريف بعد أن أفقدتهم الحظائر المسيجة
أرضهم . وقد رسمت صورة لقريته :

أى أوبرن الحلوه ! يا أجمل قرى السهل ،

حيث يقر الفلاح الكادح عيننا بالعافية والخير الوفير

ونخلت القصيدة كل الألوان الوردية التي حلم بها خيال جولدسميث
الحضري على رخاء الفلاح الذي زعم أنه سبق هذه الحظائر المسيجة .
وصف المناظر الريفية ، والأزهار المختلفة ، « الكوخ الظليل ، والمزرعة
المحرثة » ورياضات القرية ومراقصها ، و « العذراء الحجول » والصبي
المغمز ، والأسر السعيدة التي تسودها التقوى والفضيلة . ثم عاد يرى أباه
يعظ كنيسة كيلكيني وست :

كان رجلاً عزيزاً على الناحية كلها

يعيش في رغد بأربعين جنيهاً في العام -

وهو مبلغ كفاه لأن يطعم الشريد ،

وينقل المتلاف ، ويؤوى الجندي المحطم ،

ويفتقد المرضى ، ويواسي المحتضرين .

كانت نظراته في الكنيسة تجمل المكان الوقور

وهو يلقيها في لطف ورقة دون افتعال ؛

ويخرج الحق من شفثيه قوياً جباراً ،

فيمكث الجهال ليصلوا بعد أن جاعوا ليستهزئوا ! .

أما معلم المدرسة الذي أدب الشاعر في طفولته فقد تحول في ذكرياته إلى

مدرس « صارم الطلعة » .

ومع ذلك كان رحيماً ، فإذا عنف في شيء

فلأن المحبة التي يكنها للعلم كانت خاطئة
ثم كان بارعاً في الجدل باعتراف القسيس ،
فهو يواصله ولو كان مغلوباً

وكان بألفاظه الطويلة البليغة المرعدة

يهر الريفيين الملتفين حوله محققين

وتحديقهم يطول ، وعجبهم يشتد ،

لأن رأساً واحداً صغيراً حوى كل علمه .

وخيل لجولدسميث أن هذا الفردوس دهرته الحظائر المسيجة ، فاستحالت
مزرعة الفلاح إلى أرض للرعى ، وفرت أسر الفلاحين إلى المدن أو المستعمرات ،
وأخذ يجف ذلك النبع الريفى الذى تنبثق منه الفضيلة الصادقة .

الويل لبلد يتكدر فيه المال ويفسد الرجال ،

فهو فريسة لشرور وآفات لن تمهله طويلاً

أما وقد كتب جولدسميث خير قصيدة جاد بها جيله ، فقد عاد الآن
إلى الدراما . وفي ١٧٧١ عرض كولمان كوميديا جديدة سماها « تمسكنت
فتمسكنت » وتباطأ كولمان كما تباطأ جارريك من قبل ، حتى تدخل جونسن
في الأمر وأمر المدير تقريباً بإخراج التمثيلية . وكتب جارريك مقدمتها بعد
أن تصالح مع جولدسميث . وبعد شذائد وضيقات كادت تحطم روح
المؤلف ، أخرجت المسرحية في ١٥ مارس ١٧٧٣ . وحضر جونسن ورينولدز
وغيرهما من الأصدقاء حفلة الافتتاح وكانوا أول المصنفين . أما جولدسميث
نفسه فكان أثناء ذلك يتجول في حديقة سانت جيمس على غير هدى ،
إلى أن عثر عليه بعضهم وأكد له أن مسرحيته لقيت نجاحاً عظيماً . وقد طال
عرضها ، وجاءته الحفلات التي خصصت حصيلتها له بعام من الرخاء .

وكان قد ارتقى الآن بنفسه إلى مكانة لا يعلو عليه فيها سوى جونسن
بين كتاب العصر الانجليزى ، بل لقد حقق الشهرة خارج وطنه . وكان
شخصية قائده في « النادى » ، وجرؤ على مخالفة جونسن مراراً . وذات
مرة والحديث يدور حول قصص الحيوان الخرافية ، لاحظ أن من العسير

جداً أن تجعل السمك يتكلم كالسمك ، ثم قال لجونسن « وليس هذا بالأمر اليسير كما تحسبه ، لأنك لو شئت أن تجرى الكلام على السنة السمك الصغير لتكلم كله كما تتكلم الحيتان » (١٦٦) . وكان « الدب الأكبر » يحمشه ببرائته أحياناً في قسوة ، ولكنه أحبه رغم ذلك ، وقد رد جولدسميث المحبة بمثلها رغم حسده جونسن على تفوقه في فنون الحديث . ولم يكن جولدسميث قد نظم معارفه ورتبها قط ، ولم يكن في استطاعته الرجوع إليها بسرعة أو ذكاء ، قال جارليك « كان يكتب كما يكتب الملاك ، ويتحدث كما يتحدث بل المسكين » (١٦٧) . أما بووزيل فكان ينزع إلى الغضب من قدر جولدسميث ، ولكن كثيراً من معاصريه - كرينولدز ، وبيرك ، وولكس ، وبرسي - احتجوا على هذا الغضب لما فيه من ظلم (١٦٨) . وقد لوحظ أن جولدسميث كثيراً ما كان يحسن الحديث في الاجتماعات التي يغيب عنها جونسن (١٦٩) .

وكانت لهجته في الحديث ، وعاداته ، ومظهره - كلها تعاكسه . فهو لم ينس قط لهجته الأيرلندية . وكان شديد الأهمال لهندائه ، ياهو أحياناً يلبس الملابس الزاهية المتعددة الألوان المتناقضة المظهر . وكان مغروراً مزهواً بما حصل من ألوان الثقافة ، ولم يعترف بتفوق جونسن عليه كاتباً ، وكان طوله خمسة أقدام وخمس بوصات ، وقد غاظه طول جونسن وضخامته ، وكانت طبيعته الطيبة تشرق من خلال وجهه القبيح . والصورة التي رسمها له رينولدز لم تخلع عليه جمالا ، فهنا شفتان غليظتان ، وجبين مترجع ، وأنف ناتيء ، وعينان قلقتان . وقد زاد الرسامون الكاريكاتوريون أمثال هنري بنري فم أولفر اتساعاً وأنفه طولاً ، ووصفته صحيفة « اللندن باكت » بأنه أورانبجوتان (١٧١) ، وسرت في المدينة عشرات القصص عن أخطائه الفاضحة في حديثه وسلوكه ، وعن حبه المستور للمحسناء ماري هورنك .

أما أصدقاؤه فكانوا عليهم بأن عيوبه سطحية ، تخفى روحاً من الود ، والمحبة ، والكرم الذي كاد يدمر صاحبه ، وحتى بوزويل وصفه بأنه « أعظم من وجد من الرجال سماحة قلب ، أما وقد أتيج له الآن قدر كبير من الذهب مما غلته مسرحياته الفكاهية ، فإن جميع المعوزين يعتمدون عليه » (١٧١) . فإذا لم يعد لديه من المال ما يعطيه اقترض ليسد مطالب الفقراء

الذين التمسوا العون منه^(١٧٢) . وقد رجا جارياك (الذى لم يكن قد استرد منه جنيتها الأربعين) أن يقرضه ستين جنياً على ذمة مسرحية أخرى ، فوافاه بالمبلغ . وبلغت ديون جولدميث عند موته ٢٠٠٠ جنيه . وتسأل جونسن « هل وجد قط فقير أولاه الناس هذه الثقة من قبل ؟ »^(١٧٣) .

وفي ١٧٧٤ ، بينما كان على وشك الذهاب إلى أحد الأندية العديدة التي انتمى إليها ، أصابته الحمى . فأصر على أن يصف لنفسه الدواء ، ناسياً نصيحة بوكليرك بأنه ينبغي ألا يصف الدواء إلا لأعدائه ، وتناول عقاراً مسجلاً ، فساعت حاله . ودعى طبيب لعيادته ، ولكن وقت إنقاذه كان قد فات . وقضى نحبه في ٤ أبريل غير متجاوز الخامسة والأربعين . والتف حول جثمانه حشد من الباكين ، وكانوا رجالاً ونساء بسطاء يكادون يعتمدون في قوتهم على صدقاته . ودفن في فناء كنيسة « التبل » ولكن أصحابه أصروا على أن يقام له نصب تذكاري في وستمنستر آبي . ونحت نواكز التذكار وكتب جونسن القبرية . وكان خيراً منها السطور التي كتبها الشاعر في مسرحية « الرجل الطيب » إذ يقول « ما أشبه الحياة في أعظم حالاتها وأفضائها بطفل شقى لا بد من ملاطفته ومسايرته قليلاً حتى ينام ، ثم ينتهي كل الهم والقلق »^(١٧٦)

* * *